حلية طالب العلم

بقلم

بكر بن عبد الله أبو زيد

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

حلية طالب العلم

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة

الطبعة الاولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

مؤسسة الرسالة

للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة
شارع حبيب أبي شهلا
مبنى المسكن
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢
فاكس: ٨١٨٦١٥ (٩٦١١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠
بيروت - لبنان

Resalah Publishers

Tel: 319039 - 815112
Fax: (9611) 818615
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon

Email:
resalah@resalah.com

Web Location:
http://www.resalah.com

 ١

المقدمة

الحمدُ لله، وبَعْدُ:

فَأُقَيِّدُ مَعَالِمَ هذه «الحِلْيةِ» المُباركةِ عام ١٤٠٨هـ، والمسلمون - ولله الحمدُ - يُعايشون يَقظةً علميةً، تَتَهَلَّلُ لها سُبُحَاتُ الوجوه، ولا تزال تُنَشِّطُ - مُتَقَدِّمَةً إلى الترقِّي والنُّضوجِ - في أفئدةِ شبابِ الأُمَّةِ مَجْدَها ودَمَها المُجدِّدَ لحياتِها؛ إذ نرى الكتائبَ الشبابيَّةَ تترى، يتقلَّبون في أَعْطافِ العلمِ مُثْقَلين بحِمْلهِ يَعُلُّوْن منه ويَنْهَلُون، فلديهم من الطُّموحِ، والجامعيةِ، والاطِّلاع المُدْهِش والغَوْص على مكنونات المسائل، ما يَفْرَح به المُسلمون نَصْراً، فَسُبحان مَنْ يُحْيي ويُميت قلوباً.

لكن؛ لا بُدَّ لهذه النواةِ المباركةِ من السَّقْيِ والتعهُّدِ في مساراتها كافَّةً؛ نشراً للضماناتِ التي تَكُفُّ عنها العَثارَ والتعثُّرَ في مثاني الطَّلَبِ والعَمَلِ؛ من تموُّجاتٍ فكرِيَةٍ، وعَقَدِيةٍ، وسلوكيَّةٍ، وطائفيَّةٍ، وحِزْبيةٍ...

وقد جعلتُ طوْعَ أيديهم رسالةً في «التعالُم» تكشفُ المُنْدَسِّين بينهم خشيةَ أن يُرْدُوهم، ويُضيِّعوا عليهم أَمْرَهم، ويُبَعْثِرُوا مسيرتَهم في الطلب،

فيستلُوهم وهم لا يَشْعرون.

واليومَ أخوك يشدُّ عَضُدَك، ويأخُذ بيدك، فأجعلُ طَوْعَ بنانِك رسالةً تحمِلُ «الصِّفـة الكـاشِفة»[1] لِحلْيَتِك، فها أنَذا أجعلُ سِنَّ القلمِ على القِرْطاس، فاتْلُ ما أرقُمُ لك أنْعَمَ اللهُ بك عَيْناً[2]:

لقـد توارَدَتْ مُوْجِباتُ الشرعِ على أنَّ التحلِّي بمحاسن الآداب، ومكـارم الأخـلاق، والهَـدْي الحسن، والسَّمْت الصـالـح: سِمَـةُ أهـل الإسلام، وأنَّ العلمَ ـ وهو أثمن دُرَّةٍ في تاج الشرع المُطَهَّر ـ لا يصلُ إليه إلَّا المُتَحلِّي بآدابـه، المُتَخلِّي عن آفـاتِـه، ولهذا عناها العلماءُ بالبحث والتنبيه، وأفردوها بالتأليف، إمَّا على وَجْه العموم لكافَّة العلوم، أو على وَجْه الخصـــوص؛ كآدابِ حَمَلة القـرآن الكـريم، وآداب المُحَـدِّث، وآداب المُفتي، وآداب القاضي، وآداب المُحْتَسِب، وهكذا...

والشأنُ هنا في الآدابِ العامّةِ لمن يسلُكُ طريقَ التعلُّم الشرعي.

وقـد كان العلمـاءُ السابقون يُلَقِّنون الطلاب في حِلَق العلم آدابَ

(١) الصفة الكاشفة: هذه من مصطلحات كُتبِ الموادِّ لـ «لسان العرب».
ومنه ما في مادة (ظبأ) من «القاموس»؛ قال الزَّبيدي في «تاج العروس» (١ / ٣٣٢):
«الظبأة هي: الضبع (العرجاء) صفة كاشفة» اهـ.
وهذا الوجه من الصفة هو الذي يُراد به تمييز الموصوف الذي لا يُعلم؛ ليميز من سائر الأجناس بما يكشفه.
انظر حرف الصاد من «الكليات» (٣ / ٩٢).

(٢) أوضحتُ في حرف الألف من «معجم المناهي اللفظية» أنَّ هذا اللفظَ: (أنعم الله بك عينا) لا يصحُّ النهي عنه.

الطلبِ، وأدركتُ خَبَرَ آخرِ العِقْد في ذلك في بعض حَلَقاتِ العلم في المسجد النبويّ الشريف؛ إذ كان بعضُ المُدَرِّسين فيه، يُدَرِّسُ طُلَّابه كتاب الزَّرْنُوجي (م سنة ٥٩٣هـ) رحمه الله تعالى، المسمى: «تعليم المُتَعَلِّم طريقَ التعلُّم»(١).

فعسى أن يَصِلَ أهلُ العلم هذا الحَبْلَ الوثيقَ الهادي لأقوم طريق، فَيُدْرَجُ تدريسُ هذه المادّةِ في فواتح دروس المساجد، وفي موادّ الدراسة النظامية، وأرجو أن يكونَ هذا التقييدُ فاتحةَ خَيْرٍ في التنبيهِ على إحياءِ هذه المادة التي تُهَذِّبُ الطالبَ، وتَسْلُكُ به الجادّةَ في آداب الطَّلبِ وحَمل العلم، وأدبه مع نفسِه، ومع مُدَرِّسِه، ودرسه، وزميله، وكتابه، وثمرة علمه، وهكذا في مراحل حياته.

فإليك حِلْيَةً تحوي مجموعةَ آدابٍ، نواقضُها مجموعةُ آفاتٍ، فإذا فات أدبٌ منها؛ اقترف المُفَرِّطُ آفةً من آفاتِه، فَمُقِلٌّ ومستكثرٌ، وكما أنَّ هذه الآدابَ دَرَجاتٌ صاعدةٌ إلى السُّنَّةِ فالوجوبُ؛ فنواقضُها دَرَكاتٌ هابطةٌ إلى الكراهةِ فالتحريمُ.

ومنها ما يشملُ عُمومَ الخلقِ من كل مكلَّف، ومنها ما يختصُّ به طالبُ العلم، ومنها ما يُدْرَكُ بضرورة الشرع، ومنها ما يُعرف بالطبع، ويدلُّ عليه عمومُ الشرع؛ من الحمل على محاسن الآداب، ومكارم الأخلاق، ولم أَعْنِ الاستيفاءَ، لكنّ سياقَتَها تجري على سبيل ضرب المثال؛ قاصداً

(١) طُبع مراراً، وهو مع إفادتِه فيه ما يقتضي التنبُّه، فَلْيُعْلَم، والله أعلم.

الدلاَلة على المُهِمَّاتِ، فإذا وافَقَتْ نفساً صالحةً لها؛ تناولت هذا القليلَ فَكَثَّرَتْهُ، وهذا المجمَل ففصَّلته، ومن أخذ بها؛ انْتَفَع ونفع، وهي بدورِها مأخوذةٌ مِن أدب مَن بارك اللهُ في عِلْمِهم، وصاروا أئمَّةً يُهتدَى بهم، جَمَعنا اللهُ بهم في جَنَّتِهِ آمين[1].

بكر بن عبد الله أبو زيد

في ٥ / ٨ / ١٤٠٨هـ

□□□□□

---

(١) مِنْ هذه الكُتُبِ: «الجامع» للخطيب البغدادي رحمه الله تعالى، و«الفقيه والمتفقه» له، و«تعليم المتعلم طريق التعلم» للزَّرْنوجي، و«آداب الطلب» للشوكاني، و«أخلاق العلماء» للآجُرِّي، و«آداب المتعلمين» لسُحنون، و«الرسالة المفصَّلة لأحكام المتعلمين» للقابسي، و«تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة، و«الحث على طلب العلم» للعسكري، و«فضل علم السلف على الخلف» لابن رجب، و«جامع بيان العلم» لابن عبدالبر، و«العلم؛ فضله وطلبه» للأمين الحاج، و«فضل العلم» لمحمد أرسلان، و«مِفتاح دار السعادة» لابن القيم، و«شرح الإحياء» للزَّبيدي، و«جواهر العِقْدَين» للسَّمْهودي، و«آداب العلماء والمتعلمين» للحسين بن منصور ـ منتخب من الذي قبله ـ، و«قانون التأويل» لابن العَرَبي، و«العزلة» للخطَّابي، و«من أخلاق العلماء» لمُحمد سليمان، و«مناهج العلماء» لفاروق السامرائي، و«التعليم والإرشاد» لبدر الدين الحَلَبي، و«الذخيرة للقَرافي» الجزء الأول، والأول من «المجموع» للنووي، و«تشحيذ الهِمَم إلى العلم» لمحمد بن إبراهيم الشيباني، و«رسائل الإصلاح» لمحمد الخَضِر حسين، و«آثار محمد البشير الإبراهيمي».

وغيرها كثير، أجزل الله الأجر للجميع آمين.

الفصل الأول

آدَابُ الطَّالب فيْ نَفْسهِ

١ ـ العِلْمُ عبادةٌ[1]:

أصلُ الأُصولِ في هذه «الحِلْيةِ» بل ولكل أمرٍ مطلوبٍ عِلْمُك بأنَّ العلمَ عبادةٌ؛ قال بعضُ العلماء: «العلمُ صلاةُ السرِّ، وعبادةُ القلبِ».

وعليه؛ فإن شرطَ العبادةِ:

١ ـ إخلاصُ النيّة لله سبحانه وتعالى؛ لقوله:

﴿وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ. . .﴾ الآية.

وفي الحديث الفَرْدِ المشهور عن أمير المؤمنين عُمَرَ بن الخطّاب رضي اللهُ عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

«إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات. . .» الحديث.

فإنْ فَقَدَ العِلْمُ إخلاصَ النِّيَّةِ؛ انتقل من أفضل الطاعات إلى أَحَطِّ

---

(١) «فتاوى ابن تيمية» (١٠ / ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ٤٩ ـ ٥٤ و١١ / ٣١٤ و٢٠ / ٧٧ ـ ٧٨).

المخـالفـات. ولا شيء يُحَطِّمُ العلمَ مثلُ: الرياء؛ رياء شركٍ، أو رياء إخلاصٍ[1]، ومثلُ التسميع؛ بأن يقول مُسَمِّعاً: علمتُ وحفظتُ....

وعليه؛ فالتزمِ التخلُّصَ من كل ما يشوب نيتَك في صدق الطلب؛ كحُبِّ الظُّهور، والتفوُّق على الأقرانِ، وجعله سُلَّماً لأغراض وأعراضٍ؛ من جاه، أو مال، أو تعظيم، أو سُمعة، أو طلبِ محمدةٍ، أو صرفِ وجوه النـاس إليك؛ فإنَّ هذه وأمثـالَها إذا شابت النيةَ؛ أفسدتها، وذهبت بركةُ العلم، ولهــذا يتعيّن عليك أن تَحْمي نيَّتَـك من شَوْبِ الإرادة لغير الله تعالى، بل وتحمي الحِمىٰ

وللعُلماءِ في هذا أقوالٌ وموقفٌ بَيَّنْتُ طَرَفاً منها في المبحث الأول من كتـاب «التعـالُم»، ويُزاد عليه نهيُ العلمـاء عن «الـطُّبوليات»، وهي المسائلُ التي يُراد بها الشهرة.

وقد قيل: «زلّة العالم مضروبٌ لها الطَّبْل»[2].

وعن سفيانَ رحمه الله تعالى أنه قال:

«كنتُ أُوتيتُ فهمَ القرآن، فلَما قبلتُ الصُّرَّةَ؛ سُلِبْتُه»[3].

---

(١) «الذخيرة» للقرافي (١ / ٤٥).

وانظر مبحثاً نفيساً في «تهذيب الآثار» للطَّبَري (٢ / ١٢١ ـ ١٢٢) طبع في مطابع الصفا بمكة.

(٢) «الصوارم والأسنة» لأبي مَدْيَن الشنقيطي السلفي رحمه الله تعالى.

وانظر: «شرح الإحياء»، وعنه «كنوز الأجداد» (ص٢٦٣).

(٣) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٩).

فاستمسِكْ رَحِمَك اللهُ تعالى بالعُروة الوثقى العاصمةِ من هذه الشوائب؛ بأن تكونَ ـ مع بذل الجهدِ في الإخلاص ـ شديدَ الخوف من نواقضِه، عظيمَ الافتقارِ والالتجاءِ إليه سبحانه.

ويُؤْثَرُ عن سفيانَ بن سعيد الثَّوْري رحمه الله تعالى قوله:

«ما عالجتُ شيئاً أشدَّ علي من نيّتي».

وعن عُمر بن ذَرٍّ أنه قال لوالِده: يا أبي! مالَك إذا وعظتَ الناسَ أخذهم البكاءُ، وإذا وَعَظَهم غيرُك لا يبكون؟ فقال: يا بُني! ليستِ النائحةُ الثَّكْلىٰ مثلَ النائحةِ المُسْتأجَرةِ[1].

وفّقك الله لرشدك آمين.

٢ ـ الخَصْلَةُ الجامعةُ لخيري الدنيا والآخرة؛ «محبَّةُ الله تعالى ومحبةُ رسوله ﷺ»، وتحقيقُها بتمحُّضِ المتابعةِ وقَفْوِ الأثرِ للمعصوم.

قال اللهُ تعالى:

﴿قُلْ إنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذنوبَكُمْ﴾.

وبالجُملةِ؛ فهذا أصلُ هذه «الحِلْيةِ»، ويَقَعان منها موقعَ التاجِ من الحُلّة.

فيا أيُّها الطلابُ! ها أنتم هؤلاء تربَّعتُم للدرسِ، وتعلَّقْتُم بأنفس

---

(١) «العقد الفريد» لابن عبد رَبِّه.

عِلْقٍ (طَلَبِ العلم)؛ فاوصيكم ونفسي بتقوى اللهِ تعالى في السرِّ والعلانية؛ فهي العُـدَّة، وهي مهبطُ الفضائل، ومتنزَّلُ المحامِد، وهي مبعثُ القُوَّة، ومِعْراج السُّمُوِّ، والرابطُ الوثيق على القلوب عن الفِتَن، فلا تُفَرِّطوا.

٢ ـ كُنْ على جادّة السَّلَف الصالح

كُنْ سَلَفياً على الجادّة؛ طريقِ السَّلَف الصالح من الصَّحابةِ رضي الله عنهم، فَمَنْ بعـدهم ممن قَفَـا أَثَـرَهم في جميع أبواب الدِّين؛ من التوحيدِ، والعباداتِ، ونحوها، مُتَمَيِّزاً بالتزام آثارِ رسول الله ﷺ، وتوظيفِ السُّنن على نفسِك، وتَرْك الجدال، والمراءِ، والخوض في علم الكلام، وما يجلبُ الآثام، ويصدُّ عن الشرع.

قال الذهبيُّ رحمه الله تعالى[١]:

«وصحَّ عن الدارَقُطني أنه قال: ما شيءٌ أبغضَ إليّ من عِلم الكلام. قلتُ: لم يدخُل الرجلُ أبداً في علم الكلام ولا الجِدال، ولا خاض في ذلك، بل كان سَلَفياً» اهـ.

وهؤلاء هم (أهلُ السنة والجماعة)، المُتَّبِعون آثارَ رسول الله ﷺ، وهم كما قال شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله تعالى[٢]:

«وأهلُ السنة: نقاوةُ المسلمين، وهم خيرُ الناسِ للناس» اهـ.

فالزمِ السبيلَ، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

---

(١) «السير».

(٢) «منهاج السنة» (٥/ ١٥٨)، طبع جامعة الإمام.

٣ ـ مُلازَمةُ خشْيةِ الله تعالى:

التحلِّي بعمارة الظاهرِ والباطن بخشيةِ الله تعالى: مُحافظاً على شعائر الإسلام، وإظهارِ السنة ونشْرِها بالعَمَلِ بها والدعوة إليها؛ دالاًّ على اللهِ بعلمك وسَمْتِكَ وعَمَلك، متحلِّياً بالرجولةِ، والمساهلةِ، والسَّمْتِ الصالح.

وملاكُ ذلك خشيةُ الله تعالى، ولهذا قال الإمام أحمدُ رحمه الله تعالى:

«أصلُ العلمِ خشيةُ الله تعالى».

فالزمْ خشيةَ الله في السرِّ والعَلَن؛ فإن خيرَ البريَّةِ من يخشى اللهَ تعالى، وما يخشاه إلاّ عالمٌ، إذن فخيرُ البريَّةِ هو العالمُ، ولا يَغِبْ عن بالِك أنّ العالم لا يُعَدُّ عالماً إلا إذا كان عاملاً، ولا يعملُ العالمُ بعلمهِ إلا إذا لزمته خشيةُ الله.

وأسند الخطيبُ البغداديُّ رحمه اللهُ تعالى بسندٍ فيه لطيفةٌ إسناديةٌ برواية آباءٍ تسعةٍ، فقال[1]: أخبرنا أبو الفَرَج عبد الوهّاب بن عبدالعزيز بن الحارث بن أَسَد بن اللَّيْث بن سُليمان بن الأسود بن سفيانَ بن زيد بن أُكَينة ابن عبدالله التميمي من حِفْظِهِ؛ قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت

(١) «الجامع» للخطيب، و«ذم مَن لا يعمل بعلمِهِ» (رقم ١٥) لابن عساكر. وراجع لإسنادِهِ: «لسان الميزان» (٤ / ٢٦ ـ ٢٧) للحافظ ابن حَجَر.

أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت علي بن أبي طالب يقول:

«هَتَفَ العلمُ بالعمل، فإنْ أجابه، وإلا ارْتَحَل» اهـ.

وهذا اللفظُ بنحوه مرويٌّ عن سفيانَ الثَّوريِّ رحمه الله تعالى.

٤ ـ دوامُ المراقبةِ:

التحلِّي بدوام المُراقَبة لله تعالى في السرِّ والعَلَن؛ سائراً إلى ربِّك بين الخوف والرجاء؛ فإنهما للمسلم كالجناحين للطائر.

فَأَقْبِل على الله بكُلِّيتك، وَلْيَمتلىء قلبُك بمحبّته، ولسانُك بذكره، والاستبشارِ والفرحِ والسرورِ بأحكامِه وَحِكَمِه سبحانه.

٥ ـ خَفْضُ الجَناحِ ونَبْذُ الخُيَلاءِ والكبرياء:

تَحَلَّ بآداب النفس؛ من العفافِ، والحِلْم، والصبر، والتواضُعِ للحقِّ، وسكون الطائر؛ من الوَقارِ، والرَّزانةِ، وخَفْض الجناح؛ مُتَحَمِّلاً ذُلَّ التعلُّم لعزّة العلم، ذليلاً للحقِّ.

وعليهِ؛ فاحْـذَرْ نواقضَ هذه الآدابِ؛ فإنّهـا مع الإثمِ تُقيم على نفسِك شاهداً على أنَّ في العقل عِلّةً، وعلى حرمانٍ من العلم والعملِ به، فإياك والخُيَلاءَ؛ فإنّه نِفاقٌ وكبرياءُ، وقد بَلَغَ من شدّة التوقّي منه عند السَّلَف مَبْلَغـاً:

ومن دقيقـهِ ما أسنده الذهبيُّ في ترجمة عَمْرو بن الأسود العَنْسي المتوفَّى في خلافة عبدالملك بن مروان رحمه الله تعالى: أنه كان إذا خرج

من المسجد قَبَضَ بيمينهِ على شماله، فَسُئل عن ذلك؟ فقال: مخافةَ أن تُنافق يدي.

قلتُ: يُمْسكُها خوفاً من أن يَخْطُرَ بيدهِ في مشيتهِ؛ فإنّ ذلك من الخُيَلاء[1] اهـ.

وهذا العارِضُ عَرَض للعَنْسيِّ رحمه الله تعالى.

واحْذَر داءَ الجبابرةِ: (الكِبْرَ)؛ فإنّ الكِبْرَ والحرصَ والحَسَدَ أولُ ذنب عُصِيَ الله به[2]، فتطاولُك على مُعَلِّمِك كبرياءُ، واستنكافُك عَمَّن يفيدُك مِمَّن هو دونَك كبرياءُ، وتقصيرُك عن العَمَل بالعلم حَمْأَةُ كِبْرٍ، وعنوانُ حرمانٍ.

العـلمُ حَرْبٌ للفتـى المُتعَـالي
كالسَّيل حَرْبٌ للمَكـان العـالي

فالْزَم ـ رحمك اللهُ ـ اللُّصوقَ إلى الأرضِ، والإزراءَ على نفسِك، وهَضْمَها، ومُراغَمَتَها عند الاستشرافِ لكبرياءٍ أو غطرسةٍ أو حُبِّ ظهورٍ أو عُجْبٍ... ونحو ذلك من آفاتِ العلم القاتلةِ له، المُذْهِبَة لهيبتِه، المُطْفِئَةِ لنورِه، وكلَّما ازددتَ علماً أو رفعةً في ولايةٍ؛ فالْزَم ذلك؛ تُحْرِزْ سعادةً عظمى، ومقاماً يَغْبِطُك عليه الناسُ.

وعن عبدالله ابن الإمام الحُجَّة الراوية في الكُتُب السِّتَّة بكر بن

---

(١) «فهرس الفتاوى» (٣٦ / ١٩٣).

(٢) «السير» (٤ / ٨٠).

عبدالله المُزَني رحمهما الله تعالى؛ قال:

«سمعتُ إنساناً يُحَدِّث عن أبي، أنه كان واقفاً بعَرَفة، فَرَقَّ، فقال: لولا أنِّي فيهم؛ لقلتُ: قد غُفِرَ لهم».

خَرَّجَه الذهبي[١]، ثم قال:

«قلتُ: كذلك ينبغي للعَبْدِ أن يُزْري على نفسهِ ويَهْضِمَهَا» اهـ.

٦ ـ القناعةُ والزَّهادةُ:

التَّحَلِّي بالقناعةِ والزهادةِ، وحقيقةُ الزهدِ[٢]: «الزهدُ بالحرام، والابتعادُ عن حِمَاه؛ بالكَفِّ عن المُشْتَبَهاتِ وعن التطلُّع إلى ما في أيدي الناس».

ويُؤْثَرُ عن الإمام الشافعيِّ رحمه الله تعالى[٣]:

«لَوْ أَوْصَى إنسانٌ لِأَعْقَل الناس؛ صُرِفَ إلى الزُّهَّاد».

وعن محمد بن الحَسَن الشَّيْباني رحمه الله تعالى لمّا قيل له: أَلَا تُصَنِّفُ كتاباً في الزُّهْدِ؟ قال:

«قد صَنَّفْتُ كتاباً في البُيوعِ»[٤].

يعني: «الزاهدَ من يتحرَّزُ عن الشُّبُهاتِ، والمكروهاتِ؛ في

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٣٤).

وانظر كلاماً نفيساً لشيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى في: «مجموع الفتاوى» (١٤ / ١٦٠).

(٢ ـ ٤) «تعليم المتعلم» للزرنوجي (ص ٢٨).

التجاراتِ، وكذلك في سائر المعاملاتِ والحِرَفِ» اهـ.

وعليه؛ فَلْيَكُن معتدِلاً في معاشِه بما لا يُشينه، بحيثُ يصونُ نفسَه وَمَن يعولُ، ولا يَرِدُ مواطنَ الذِّلَّةِ والهُوْنِ.

وقد كان شيخُنا محمد الأمين الشّنقيطيُّ المتوفى في ١٧/ ١٢/ ١٣٩٣هـ رحمه الله تعالى مُتَقَلِّلاً من الدنيا، وقد شاهدتُه لا يعرفُ فئاتِ العملةِ الورقيةِ، وقد شافَهَني بقوله:

«لقد جئتُ من البلاد ـ شنقيط ـ ومعي كَنْزٌ قلَّ أن يُوْجَدَ عند أحدٍ، وهو (القناعةُ)، ولو أردتُ المناصبَ؛ لعرفتُ الطريقَ إليها، ولكنّي لا أُوثر الدنيا على الآخرةِ، ولا أبذلُ العلمَ لنيلِ المآربِ الدنيويةِ».

فرحمه اللهُ تعالى رحمةً واسعةً آمين.

٧ ـ التَّحَلِّي بِرَوْنَقِ العلم:

التحلِّي بـ (رونق العلم) حُسْن السَّمْت، والهَدْي الصالح، من دَوَامِ السكينة، والوقارِ، والخُشوع، والتواضُعِ، ولزوم المَحَجَّة؛ بعمارة الظاهر والباطن، والتخلِّي عن نواقِضِها.

وعن ابن سيرينَ رحمه الله تعالى قال:

«كانوا يتعلَّمون الهَدْيَ كما يتعلَّمون العلم».

وعن رجاء بن حَيْوَة رحمه الله تعالى أنه قال لرجلٍ:

«حَدِّثْنا، ولا تُحَدِّثْنا عن مُتماوتٍ ولا طَعَّانٍ».

رواهما الخطيب في «الجامع»، وقال[1]:

«يجبُ على طالب الحديثِ أن يتجنَّب: اللعبَ، والعبثَ، والتبذُّلَ في المجـالس؛ بالسُّخْفِ، والضحكِ، والقهقهةِ، وكثرة التنادُرِ، وإدمان المُـزاحِ والإكثـار منـه، فإنما يُستجاز من المُزاح بيسيرِهِ ونادرِهِ وطريفِهِ، والذي لا يُخرج عن حَدِّ الأدب وطريقةِ العلم، فأمَّا مُتَّصِلهُ وفاحشُهُ وسخيفُهُ ومـا أوغَر منه الصُّدورَ وجَلَبَ الشَّرَّ؛ فإنه مذمومٌ، وكثرةُ المزاحِ والضحكِ يَضَعُ من القَدْرِ، ويُزيلُ المروءةَ» اهـ.

وقد قِيلَ: «مَنْ أكثَر مِنْ شيء؛ عُرِفَ به».

فتجنَّب هاتِيكَ السَّقَطاتِ في مُجالَسَتِكَ ومُحادَثَتِك.

ويعضُ من يَجْهَلُ يظنُّ أن التبسُّطَ في هذا أرْيَحِيَّةٌ.

وعن الأَحْنَفِ بن قَيْسٍ قال:

«جَنِّبوا مجالَسَنا ذِكْرَ النساءِ والطعامِ؛ إنِّي أُبْغِضُ الرجلَ يكون وصَّافاً لفرجِهِ وبطنِهِ»[2].

وفي كتابِ المُحَدَّث المُلْهَم أمير المؤمنين عُمَر بن الخطّاب رضي الله عنه في القضاء:

«ومن تزيَّن بما ليس فيه؛ شانَهُ الله».

---

(١) «الجامع» (١ / ١٥٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٩٤).

وانظر شَرْحَه لابن القيِّم رحمه الله تعالى[1].

٨ ـ تَحَلَّ بالمُروءةِ[2]:

التحلِّي بـ (المروءة)، وَمَا يَحْمِل إليها؛ من مكارمِ الأخلاقِ، وطلاقَةِ الوجه، وإفشاءِ السلام، وتحمُّل الناس، والأَنَفَةِ من غير كبرياءٍ، والعزَّةِ في غير جَبَروتٍ، والشهامة في غير عصبيَّةٍ، والحَمِيَّةِ في غير جاهليةٍ.

وعليه؛ فتنكَّب (خوارمَ المروءة)؛ في طَبْعٍ، أو قولٍ، أو عمل؛ من حِرْفة مَهِينةٍ، أو خَلَّةٍ رديئةٍ؛ كالعُجْب، والرياء، والبَطَرِ، والخُيَلاءِ، واحتقار الآخرين، وغَشَيان مواطن الرِّيَب.

٩ ـ التمتُّع بخصال الرجولةِ:

تمتَّع بخصال الرجولةِ؛ من الشجاعة، وشدَّة البأس في الحقِّ، ومكارمِ الأخلاق، والبَذْلِ في سبيل المعروف، حتى تنقطعَ دونك آمالُ الرجالِ.

وعليه؛ فاحْذَر نواقضَها؛ من ضعف الجَأشِ، وقلَّةِ الصبرِ، وضعفِ المكارم، فإنَّها تَهْضِمُ العلمَ، وتقطَعُ اللسان عن قَوْلةِ الحقِّ، وتأخُذُ بناصيتهِ إلى خصومهِ في حالةٍ تَلْفَحُ بِسَمُومها في وجوه الصالحين من عبادهِ.

---

(١) «إعلام الموقعين» (٢ / ١٦١ ـ ١٦٢).

(٢) فيها مؤلفات مفردة، انظر: «معجم الموضوعات المطروقة» (ص٣٩٢).

١٠ ـ هَجْرُ التَّرَفُّهِ:

لا تسترسِلْ في (التنعُّم والرفاهية)؛ فإنّ «البذاذةَ من الإيمانِ»[١]. وخُـذ بوصيّة أمير المؤمنين عُمَـر بن الخـطّاب رضي الله عنـه في كتـابه المشهور، وفيه:

«وإيّاكم والتنعُّمَ وزِيَّ العَجَم، وتمعددوا، واخْشَوْشِنوا...»[٢].

وعليه؛ فَازْوَرَّ عن زَيْفِ الحضـارة؛ فإنّـه يُؤَنِّثُ الـطِّبـاعَ، ويُرْخي الأعصابَ، ويُقَيِّدُك بخيط الأوهام، ويَصِلُ المُجِدُّونَ لغاياتهم وأنتَ لم تَبْرَح مكانك، مشغولٌ بالتأنُّق في ملبسك، وإن كان منها شِيَاتٌ ليست محرَّمةً ولا مكروهةً، لكن ليست سَمْتاً صالحاً، والحِلْيَةُ في الظاهر كاللِّباسِ عنوانٌ على انتماء الشخص، بل تحديدٌ له، وهل اللِّباسُ إلا وسيلةٌ من وسائل التعبيرِ عن الذاتِ؟!

فكن حَذِراً في لباسِك؛ لأنه يُعَبِّرُ لغيرك عن تقويمِك؛ في الانتماء، والتكـوين، والـذوق، ولهذا قيل: الحليةُ في الظاهر تدلُّ على ميلٍ في الباطن، والناسُ يُصَنِّفُونك من لباسِك، بل إنّ كيفيّة اللُّبْسِ تُعْطي للناظرِ تصنيفَ اللابسِ من:

---

(١) كما صحَّ عن النبيِّ ﷺ، راجع له: «السلسلة الصحيحة» (رقم ٣٤١) و«تعظيم قدر الصلاة» (رقم ٤٨٤) لابن نَصْر المروزيّ.

(٢) «مسند علي بن الجَعْد» (١ / ٥١٧) (رقم ١٠٣٠)، وعنه «الفروسية» لابن القيم (ص٩)، و«أدب الإملاء والاستملاء» (ص ١١٨).

وأصله في الصحيحين وغيرهما.

الرَّصانة والتعَقُّل.

أو التمشيُخ والرهبنةِ.

أو التَّصابي وحُبِّ الظهور.

فَخُذْ من اللباسِ ما يُزينك ولا يُشينك، ولا يَجْعَلْ فيك مقالاً لقائلٍ، ولا لَمْـزاً للامزِ، وإذا تلاقى مَلْبَسُك وكيفيةَ لُبسِك بما يلتقي مع شَرَف ما تحملُه من العلم الشـرعيِّ؛ كان أدعى لتعظيمِك والانتفاعِ بعلمِك، بل بِحُسْنِ نيّتك يكون قُربةً؛ إنه وسيلةٌ إلى هداية الخلق للحقّ.

وفي المأثور عن أمير المؤمنين عُمَرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه[1]:

«أحبُّ إليَّ أنْ أنظُرَ القارىءَ أبيضَ الثياب».

أي: لِيَعْظُمَ في نفوس الناس، فيُعَظَّمَ في نفوسِهم ما لديه من الحقّ.

والناسُ ـ كما قال شيخُ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى ـ كأسرابِ القَطَا، مجبولون على تشبُّه بعضِهم ببعضٍ[2].

فإيَّاك ثم إيَّاك من لباس التَّصابي، أمَّا اللباسُ الإفرنجيُّ؛ فغيرُ خافٍ عليك حُكْمُهُ، وليس معنى هذا أن تأتي بلباسٍ مُشَوَّهٍ، لكنه الاقتصادُ في اللِّباسِ برسم الشرعِ، تَحُفُّه بالسَّمْتِ الصالح والهَدْيِ الحَسَن.

وتَطَلَّبْ دلائلِ ذلك في كتب السُّنة والرِّقاق، لا سيّما في «الجامع»

---

(١) «الإحكام» للقَرَافي (ص ٢٧١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨ / ١٥٠).

للخطيب[1].

ولا تستنكِرْ هذه الإشارة؛ فمازال أهلُ العلم يُنَبِّهون على هذا في كُتُب الرِّقاقِ والآدابِ واللِّباسِ[2]، والله أعلم.

١١ ـ الإعراضُ عن مَجالس اللَّغْو:

لا تَطَأْ بساطَ من يَغْشون في ناديهم المُنْكَرَ، ويَهْتِكون أستارَ الأدب؛ مُتغابياً عن ذلك، فإنْ فعلتَ ذلك؛ فإنَّ جنايتَك على العلمِ وأهلِهِ عظيمةٌ.

١٢ ـ الإعراضُ عن الهَيْشاتِ:

التَّصَوُّنُ من اللَّغَط والهَيْشاتِ؛ فإنَّ الغَلَط تحت اللَّغَط، وهذا يُنافي أدبَ الطلب.

ومن لطيفِ ما يُستحضر هنا ما ذكره صاحبُ «الوسيط في أدباء شنقيط» وعنه في «مُعجم المعاجم»:

«أنه وقع نزاعٌ بين قبيلتين، فسعت بينهما قبيلة أخرى في الصلح، فتراضَوْا بحُكم الشرع، وحكّموا عالماً، فاستظهر قتلَ أربعةٍ من قبيلةٍ بأربعةٍ قُتلوا من القبيلةِ الأخرى، فقال الشيخُ بابُ بن أحمد: مثلُ هذا لا قصاصَ فيه. فقال القاضي: إنَّ هذا لا يُوجَد في كتابٍ. فقال: بل لم يَخْلُ منه كتابٌ. فقال القاضي: هٰذا «القاموسُ» ـ يعني أنه يدخُلُ في عموم كتابٍ ـ.

---

(١) «الجامع» (١ / ١٥٣ ـ ١٥٥).

(٢) «أدب الإملاء والاستملاء» (ص١١٦ ـ ١١٩)، «اقتضاء الصراط المستقيم»، «مجموع الفتاوى» (٢١ / ٥٣٩)، وانظر «الروح» لابن القيم (ص٤٠).

فتنـاولَ صاحبُ الترجمة «القاموسَ»، وأولُ ما وقع نظره عليه: «والهَيْشَةُ: الفتنةُ، وأُمُّ حُبَيْن[1]، وليس في الهَيْشَاتِ قِوَدٌ»؛ أي: في القتيلِ في الفتنةِ لا يُدرى قاتلُه، فتعجَّب الناسُ من مثل هذا الاستحضارِ في ذلك الموقفِ الحَرِجِ» اهـ مُلَخَّصاً.

١٣ ـ التَّحلِّي بالرِّفْقِ:

الْتزمِ الرفقَ في القول، مُجْتنباً الكلمةَ الجافيةَ؛ فإنَّ الخطابَ اللَّيِّنَ يتألَّفُ النفوسَ الناشزةَ.

وأدلَّةُ الكتابِ والسنةِ في هذا متكاثرةٌ.

١٤ ـ التأمُّلُ:

التحلِّي بالتأمل؛ فإنَّ من تأمل أدرك، وقيل: «تأملْ تُدْرِكْ».

وعليه؛ فتأمَّل عند التكلُّم: بماذا تتكلَّم؟ وما هي عائدتُه؟ وتَحَرَّزْ في العبـارةِ والأداءِ دون تعنُّتٍ أو تحـذلقٍ، وتـأمَّل عند المذاكرة كيف تختارُ القـالبَ المنـاسبَ للمعنى المُرادِ، وتأمَّل عند سؤال السائل كيف تتفهَّم السؤالَ على وجهه حتى لا يَحْتمل وجهين؟ وهكذا.

١٥ ـ الثباتُ والتثبُّت:

تَحَـلَّ بالثبـاتِ والتثبُّتِ، لا سيّما في المُلِمّاتِ والمُهِمّات، ومنه: الصبرُ والثباتُ في التلقِّي، وطيُّ الساعاتِ في الطَّلَبِ على الأشياخ؛ فإنَّ «مَنْ ثَبَتَ نَبَتَ».

---

(١) هي دُوَيْبَّةٌ.

الفصل الثاني
كَيْفِيَّةُ الطَّلَبِ وَالتَّلَقِّي

١٦ ـ كيفيَّةُ الطَّلَبِ ومراتِبُهُ:

«مَنْ لم يُتْقِنِ الأُصولَ؛ حُرِمَ الوُصولَ»[١]، و«من رامَ العلمَ جُمْلَةً؛ ذهب عنه جُملةً»[٢]، وقيل أيضاً: «ازْدِحامُ العلمِ في السمع مَضَلَّةُ الفهم»[٣].

وعليه؛ فلا بُدَّ من التأصيلِ والتأسيسِ لكُلِّ فنٍّ تطلبُه؛ بضبطِ أصلِهِ ومُختصره على شيخٍ مُتْقِنٍ، لا بالتحصيلِ الذاتيِّ وَحْدَه؛ وآخذاً الطَّلَبَ بالتدرُّجِ.

قال اللهُ تعالى:

﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾.

وقال تعالى:

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٤٤).

(٢) «فضل العلم» لأرسلان (ص ١٤٤).

(٣) «شرح الإحياء» (١ / ٣٣٤).

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾.

وقال تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾.

فأمامَك أمورٌ لا بُدَّ من مراعاتِها في كُلِّ فَنٍّ تطلبُهُ:

١ ـ حِفْظُ مختصرٍ فيه.

٢ ـ ضبطُه على شيخ مُتْقِنٍ.

٣ ـ عدمُ الاشتغالِ بالمطوَّلاتِ وتفاريقِ المصنَّفات قبل الضبطِ والإتقان لأصلِهِ.

٤ ـ لا تَنْتَقل من مُخْتَصر إلى آخَرَ بلا موجبٍ، فهذا من باب الضَّجَر.

٥ ـ اقتناصُ الفوائِد والضوابطِ العلميّةِ.

٦ ـ جمعُ النَّفْسِ للطلبِ والترقّي فيه، والاهتمامُ والتحرُّقُ للتحصيل والبلوغِ إلى ما فوقَه حتى تفيضَ إلى المطوَّلات بسابلةٍ مُوثقةٍ.

وكان من رأي ابن العَرَبي المالكي[1] أن لا يخلطَ الطالبُ في التعليم بين عِلْمَين، وأن يُقَدِّم تعليمَ العربيةِ والشِّعْرِ والحسابِ، ثم ينتقلَ منه إلى القُرآنِ.

---

(١) «تراجم الرجال» للخضر حسين (ص١٠٥) و«فتاوى شيخ الإسلام» ابن تيمية (٢٣ / ٥٤ ـ ٥٥) مهم.

لكنْ تعقّبه ابنُ خَلْدون بأنّ العوائدَ لا تُساعد على هذا، وأنَّ المُقَدَّم هو دراسةُ القرآن الكريم وحفظُه؛ لأنّ الوَلَد مادام في الحِجْر؛ ينقادُ للحُكم، فإذا تجاوز البلوغَ؛ صَعُبَ جَبْرُه.

أمّا الخلطُ في التعليم بين عِلْمَين فأكثرَ؛ فهذا يختلفُ باختلافِ المُتَعَلِّمين في الفهم والنشاط.

وكان من أهل العلم من يُدَرِّسُ الفقه الحنبليَّ في «زاد المُسْتَقْنِع» للمُبتدئين، و«المُقْنِع» لمن بعدَهم للخلافِ المذهبيِّ، ثم «المُغني» للخلاف العالي، ولا يسمحُ للطبقةِ الأُولى أن تجلسَ في درس الثانية. . . وهكذا؛ دَفْعاً للتشويش.

واعْلَم أنّ ذكر المختصراتِ فالمطوَّلاتِ التي يُؤَسَّسُ عليه الطلبُ والتلقّي لدى المشايخ تختلفُ غالباً من قُطر إلى قُطر باختلاف المذاهب، وما نَشَأ عليه عُلماءُ ذلك القُطْرِ من إتقانِ هذا المختصرِ والتمرُّسِ فيه دونَ غيره.

والحالُ هنا تختلفُ من طالبٍ إلى آخرَ باختلافِ القرائحِ والفهومِ، وقُوّةِ الاستعدادِ وضَعْفِه، وبُرودةِ الذهن وتوقّدِه.

وقد كان الطَّلَبُ في قُطْرنا بعد مرحلة الكتاتيبِ والأَخْذِ بحفظ القرآنِ الكريمِ يمرُّ بمراحلَ ثلاثٍ لدى المشايخِ في دروس المساجدِ: للمُبتدئين، ثم المُتوسِّطين، ثم المُتَمَكِّنين:

ففي التوحيد: «ثلاثةُ الأُصول وأدلّتها»، و«القواعدُ الأربع»، ثم

«كشف الشُّبُهات»، ثم «كتاب التوحيد»؛ أربعتُها للشيخ محمد بن عبدالوهّاب رحمه الله تعالى، هذا في توحيدِ العبادةِ.

وفي توحيدِ الأسماءِ والصفات: «العقيدة الواسِطيّة»، ثم «الحَمَوية»، و«التدمرية»؛ ثلاثتُها لشيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى، فـ«الطحاوية» مع «شرحِها».

وفي النَّحوِ: «الآجُرُّومِيَّة»، ثم «مُلحة الإعراب» للحَريري، ثم «قَطْر الندى» لابن هشام، و«ألفية ابن مالك» مع «شرحها» لابن عَقِيل.

وفي الحديثِ: «الأربعين» للنَّووي، ثم «عُمدة الأحكام» للمقدسيّ، ثم «بلوغ المرام» لابن حَجَر، و«المنتقى» للمجد ابن تيميَّة؛ رحمَهُم اللهُ تعالى، فالدُّخول في قراءةِ الأمَّاتِ السِّتِّ وغيرِها.

وفي المصطلح: «نُخْبَة الفِكَر» لابن حجر، ثم «ألفية العراقي» رحمه الله تعالى.

وفي الفقه مثلًا: «آداب المشي إلى الصلاة» للشيخ محمد بن عبد الوهّاب، ثم «زاد المستقنع» للحِجَّاوي رحمه الله تعالى أو «عُمدة الفقه»، ثم «المقنع» للخلاف المذهبي، و«المغني» للخلاف العالي؛ ثلاثتُها لابن قُدامة رحمه الله تعالى.

وفي أصول الفقه: «الوَرَقات» للجُوَيني رحمه الله تعالى، ثم «روضة الناظر» لابن قُدامة رحمه الله تعالى.

وفي الفرائض: «الرَّحْبية»، ثم مع شروحها، و«الفوائد الجلية».

وفي التفسير: «تفسير ابن كثير» رحمه الله تعالى.

وفي أُصول التفسير: «المقدمة» لشيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى.

وفي السيرة النبوية: «مختصرها» للشيخ محمد بن عبدالوهّاب، وأصلُها لابن هشام، وفي «زاد المعاد» لابن القيم رحمه الله تعالى.

وفي لسان العرب: العنايةُ بأشعارها؛ كـ«المعلّقات السبع»، والقراءة في «القاموس» للفَيْروز آباديِّ رحمه الله تعالى.

... وهكذا من مراحل الطلبِ في الفنونِ.

وكانوا مع ذلك يأخُذون بِجَرْدِ المطولات؛ مثل «تاريخ ابن جرير»، وابن كثير، وتفسيريهما، ويُرَكِّزونَ على كُتُب شيخ الإسلام ابن تيميّة، وتلميذه ابن القيِّم رحمهما الله تعالى، وكتب أئمّة الدعوةِ وفتاويهم، لا سيّما مُحَرَّراتهم في الاعتقاد.

وهكذا كانت الأوقاتُ عامرةً في الطلبِ، ومجالسِ العلمِ، فبعدَ صلاة الفجر إلى ارتفاع الضُّحى، ثم تكون القيلولةُ قُبَيْل صلاة الظهر، وفي أعقابِ جميع الصلوات الخمسِ تُعْقَدُ الدروسُ، وكانوا في أدبٍ جَمٍّ وتقديرٍ بعزّةِ نفسٍ من الطَّرفين على منهجِ السَّلَف الصالح رحمهم الله تعالى، ولذا أدركوا وصارَ منهم في عداد الأئمة في العلم جمعٌ غفيرٌ، والحمدُ لله رب العالمين.

فهل من عودةٍ إلى أصالةِ الطَّلَبِ في دراسة المُخْتَصراتِ المعتمدةِ،

لا على المـذكّرات، وفي حِفظِها لا الاعتماد على الفهم فَحَسْبُ، حتى ضاع الطُّلاَّبُ فلا حِفْظَ ولا فَهْمَ!

وفي خُلُوِّ التَّلقين من الزَّغَل والشوائبِ والكَدَرِ، سَيْرٌ على مِنْهاج السَّلَف؟

والله المستعان.

وقال الحافظُ عُثمان بن خُرَّزَاذَ (م سنة ٢٨٢هـ) رحمه الله تعالى[١]:

«يحتـاجُ صاحبُ الحـديثِ إلى خمس، فإنْ عُدِمَتْ واحدةٌ؛ فهي نَقْصٌ، يحتاجُ إلى عقلٍ جيِّدٍ، ودينٍ، وضبطٍ، وحذاقةٍ بالصِّناعةِ، مع أمانةٍ تُعْرَفُ منه».

قلتُ: ـ أي الذهبيُّ ـ:

«الأمانةُ جزءٌ من الدين، والضبطُ داخل في الحِذْقِ، فالذي يَحْتَاجُ إليه الحافظُ أن يكونَ: تقيّاً، ذكيّاً، نَحْوِيّاً، لُغَوِيّاً، زكيّاً، حَيِيّاً، سَلَفِيّاً يَكْفيهِ أنْ يكتُبَ بيديه مئتي مُجَلَّد، ويُحَصِّـلَ من الدواوين المعتبرةِ خمسَ مئةِ مجلدٍ، وأن لا يَفْتُرَ من طلبِ العلمِ إلى الممات بنيّةٍ خالصةٍ، وتواضُعٍ، وإلاّ فلا يَتَعَنَّ» اهـ.

١٧ ـ تَلَقِّي العِلْمِ عن الأشياخِ:

الأَصْلُ في الطَّلَب أن يكونَ بطريق التَّلْقين والتَّلَقِّي عن الأساتيذ،

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٣ / ٣٨٠).

والمُشَافَنةِ للأشياخِ، والأَخْذِ من أفواه الرجالِ لا من الصُّحُفِ وبطون الكتبِ، والأولُ من بابِ أخذ النَّسيبِ عن النسيبِ الناطقِ، وهو المُعَلِّمُ، أما الثاني عن الكتابِ، فهو جَمَادٌ، فأنَّى له اتصالُ النَّسَبِ؟

وقد قيل: «مَنْ دَخَلَ في العلمِ وحدَه؛ خرج وحدَه»[1]؛ أي: مَنْ دَخَلَ في طلب العلم بلا شيخ؛ خَرَجَ منه بلا عِلْمٍ، إذ العلمُ صَنْعَةٌ، وكلُّ صَنْعَةٍ تحتاجُ إلى صانعٍ، فلا بُدَّ إذاً لتعلُّمِها من مُعَلِّمِها الحاذقِ.

وهذا يكادُ يكونُ محلَّ إجماعِ كلمةٍ من أهل العلم؛ إلّا من شَذَّ مثل: علي بن رُضْوان المصري الطبيب (م سنة ٤٥٣هـ)، وقد رَدَّ عليه عُلماءُ عَصْرِهِ ومن بعدَهم.

قال الحافظُ الذهبيُّ رحمه الله تعالى في ترجمتِه له[2]:

«ولم يكن له شَيْخٌ، بل اشتغلَ بالأخذِ عن الكُتُبِ، وصنّف كتاباً في تحصيلِ الصناعة من الكُتُبِ، وأنها أوفقُ من المُعَلِّمين، وهذا غَلَطٌ» اهـ.

وقد بَسَطَ الصَّفَديُّ في «الوافي» الردَّ عليه، وعنه الزَّبيدي في «شرح الإحياء» عن عَدَدٍ من العُلَماء مُعَلِّلينَ له بعدّةِ عللٍ؛ منها ما قاله ابنُ بَطْلانَ في الردِّ عليه[3]:

---

(١) «الجواهر والدرر» للسَّخاوي (١ / ٥٨).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٨ / ١٠٥).

وانظر: «شرح الإحياء» (١ / ٦٦)، و«بُغية الوعاة» (١ / ١٣١، ٢٨٦)، و«شَذَرات الذهب» (٥ / ١١)، و«الغُنْية» للقاضي عِيَاض (ص١٦ ـ ١٧).

(٣) «شرح الإحياء» (١ / ٦٦).

«السادسة: يُوجد في الكتابِ أشياءُ تَصُدُّ عن العلمِ، وهي معدومةٌ عنـد المُعَلِّمِ، وهي التصحيفُ العـارِضُ من اشتبـاهِ الحروفِ مع عَدَمِ اللفظ، والغَلَطِ بِزَوَغـانِ البَصَرِ، وقلّةِ الخبرة بالإعرابِ، أو فسادِ الموجودِ منـه، وإصلاحِ الكتابِ، وكتابةِ ما لا يُقْرأ، وقراءةِ ما لا يُكتب، ومذهبِ صاحبِ الكتاب، وسُقْمِ النَّسْخِ، ورداءة النقلِ، وإدماجِ القارىء مواضعَ المقـاطـع، وخَلْط مبادىء التعليم، وذكر ألفاظٍ مُصْطَلَحٍ عليها في تلك الصنـاعة، وألفاظٍ يونانية لـم يُخْرِجْها الناقلُ من اللغة؛ كالنُّوْروس، فهذه كلُّهـا مُعَوِّقَةٌ عن العلم، وقد استراح المُتَعَلِّمُ من تكلُّفِها عند قراءتِه على المُعَلِّم، وإذا كان الأمرُ على هذه الصورةِ؛ فالقراءةُ على العلماءِ أجدىٰ وأفضـلُ من قراءة الإنسانِ لنفسِه، وهو ما أردنا بيانَه... قال الصَّفَدي: ولهذا قال العُلماءُ: لا تأخذ العلمَ من صَحَفي ولا من مُصْحَفي؛ يعني: لا تقرأ القُرآنَ على مَنْ قرأ من المُصحفِ ولا الحديثَ وغيرَه على من أخَذَ ذلك من الصُّحُفِ...» اهـ.

والدليلُ الماديُّ القائم على بُطلان نظرةِ ابن رُضْوان: أنّك ترى آلافَ التـراجمِ والسِّيَرِ على اختـلافِ الأزمـانِ ومـرِّ الأعصـار وتنوُّع المعارف، مشحونةً بتسميةِ الشيوخِ والتلاميذِ ومستقلٌّ من ذلك ومستكثِرٌ، وانظر شذرةً من المكثرين عن الشيوخِ حتى بلغ بعضُهم الألوفَ كما في «العُزَّاب» من «الإسفار» لراقمِه.

وكان أبو حَيّان محمد يوسُف الأندلُسي (م سنة ٧٤٥هـ)(١) إذا ذُكر

(١) مقدمة التحقيق لكتاب «الغُنية» للقاضي عِياض (ص١٦ ـ ١٧).

عنده ابنُ مالك؛ يقول: «أين شيوخُهُ؟».

«وقال الوليد[1]:

كان الأوزاعيُّ يقول: كان هذا العلمُ كريماً يتلاقاه الرجالُ بينَهم، فلمّا دَخَلَ في الكُتُبِ؛ دخل فيه غيرُ أهلِه.

وروى مثلَها ابنُ المبارك عن الأوزاعيِّ.

ولا ريبَ أنَّ الأَخْذَ من الصُّحُفِ وبالإجازةِ يقعُ فيه خَلَلٌ، ولا سيّما في ذلك العَصْر، حيثُ لم يكن بَعْدُ نَقْطٌ ولا شَكْلٌ، فتتصحَّف الكلمةُ بما يُحيل المعنى، ولا يَقَعُ مثلُ ذلك في الأخذِ من أفواه الرجال، وكذلك التحديثُ من الحفظِ يَقَعُ فيه الوَهَم؛ بخلافِ الرواية من كتاب محرَّرٍ» اهـ.

ولابنِ خَلدون مبحثٌ نفيسٌ في هذا؛ كما في «المُقَدِّمة»[2] له.

ولبعضِهم:

مَنْ لم يُشافِهْ عالماً بأُصولِه
فيقينُهُ في المُشكلات ظُنونُ

وكان أبو حَيَّان كثيراً ما يُنْشِدُ:

يَظُنُّ الغُمْرُ أنَّ الكُتْبَ تَهْدي
أخا فَهْمٍ لإدراكِ العُلومِ

---

(١) «السير» (٧ / ١١٤).

(٢) (٤) (١٢٤٥).

وما يَدْري الْجَهولُ بأنّ فيها

غوامضَ حَيَّرَتْ عقلَ الفهيمِ

إذا رُمْتَ العلومَ بغيرِ شَيْخٍ

ضَلَلْتَ عن الصِّراطِ المستقيمِ

وتلتبسُ الأمورُ عليك حتّى

تصيرَ أضلَّ من «تُوما الحكيمِ»

□□□□□

الفصل الثالث

أَدَبُ الطَّالبِ مَعَ شَيْخِه

١٨ ـ رعايةُ حُرْمَةِ الشَّيْخِ :

بما أنَّ العلمَ لا يُؤخذ ابتداءً من الكُتُب بل لا بُدَّ من شيخٍ تُتْقِنُ عليه مفاتيحَ الطَّلبِ؛ لِتَأْمَنَ من العَثارِ والزَّلَل؛ فعليك إذاً بالتحلِّي برعاية حُرْمَتِهِ؛ فإنَّ ذلك عنوانُ النجاحِ والفلاحِ والتحصيلِ والتوفيقِ، فَلْيَكُنْ شيخُكَ محلَّ إجلالٍ منك وإكرامٍ وتقديرٍ وتلطُّفٍ، فَخُذْ بمجامعِ الآدابِ مع شيخِكَ في جُلوسِك معه، والتحدُّثِ إليه، وحُسْنِ السؤال والاستماع، وحُسْنِ الأَدَب في تصفُّح الكتاب أمامَه ومع الكتاب، وتَرْكِ التطاولِ والمماراةِ أمامَه، وعَدَم التقدُّم عليه بكلامٍ أو مسيرٍ أو إكثارِ الكلام عندَه، أو مُداخَلَته في حديثِهِ ودَرْسهِ بكلامٍ منك، أو الإلحاحِ عليه في جَوابٍ؛ مُتَجَنِّباً الإكثارَ من السؤال، لا سيّما مع شُهود الملإ، فإنَّ هذا يُوْجِبُ لك الغُرورَ وله المَلَلَ.

ولا تُناديه باسمِه مُجَرَّداً، أو مع لَقَبه كقولِكَ: يا شيخُ فلان! بل قل: يا شيخي! أو يا شيخَنا! فلا تُسَمِّه؛ فإنّه أرفعُ في الأدب، ولا تُخاطِبْه بتاء

الخطابِ، أو تُناديه من بُعْدٍ من غيرِ اضطرار.

وانْظُر ما ذَكَرَهُ اللّهُ تعالى من الدلالةِ على الأَدَبِ مع مُعَلِّمِ الناسِ الخيرَ ﷺ في قولـه: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَـاءَ الـرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً...﴾ الآية.

وكما لا يليقُ أن تقولَ لوالدكَ ذي الأُبُوَّة الطينيّة: «يا فلان» أو: «يا والدي فلان» فلا يَجْمُلُ بك مع شيخِك.

والتزِمْ توقيرَ المجلسِ، وإظهارَ السُّرورِ من الدرسِ والإفادةِ به.

وإذا بَدَا لك خَطَأٌ من الشيخِ، أو وَهَمٌ فلا يُسْقِطْه ذلك من عينك؛ فإنّه سببٌ لحرمانِك من عِلْمِهِ، ومن ذا الذي يَنْجُو من الخطأ سالماً؟

واحْذَر أن تُمَارِسَ معه ما يُضْجِرُهُ، ومنه ما يُسَمِّيه المُوَلَّدُون: «حرب الأعصاب»[1]؛ بمعنى: امتحانِ الشيخِ على القُدرة العِلمِيّة والتحمُّل.

وإذا بدا لك الانتقالُ إلى شيخٍ آخرَ؛ فاسْتَأْذِنْهُ بذلك؛ فإنه أدعى لحُرمتِهِ، وأملكُ لقلبِهِ في محبّتك والعَطْفِ عليك...

إلى آخرِ جُملةٍ من الآدابِ يعرفُها بالطَّبْعِ كلُّ مُوَفَّقٍ مُبارَكٍ وفاءً لحقِّ شيخِـكَ في «أُبـوَّتهِ الدِّينيةِ»، أو ما تُسمِّيهِ بعضُ القوانينِ باسم «الرِّضاع الأدبي»[2]، وتَسْمِيَةُ بعض العُلماء له «الأبوّة الدينيّة» أليقُ، وتركُه أنسبُ.

واعْلَم أنّه بقَدْرِ رعايةِ حُرمتِهِ يكونُ النجاحُ والفلاحُ، وبقدرِ الفَوْتِ

---

(١) «معجم التراكيب» لأحمد أبو سَعْد (ص٢٨٣)، تركيب مولَّد.

(٢) «مقاصد الشريعة» لعَلّال الفاسي (ص٣٣).

يكونُ من علاماتِ الإخفاقِ.

تنبيهٌ مُهِمٌّ:

أُعيذك باللهِ من صَنيعِ الأعاجمِ، والطُّرُقيَّةِ، والمبتدعة الخَلَفيَّةِ؛ من الخُضوعِ الخارجِ عن آدابِ الشرعِ؛ مِن لَحْس الأيدي، وتَقْبيل الأكتاف، والقَبْض على اليمينِ باليمين والشمال عند السلام؛ كحالِ تودُّد الكبار للأطفالِ، والانحناءِ عند السَّلام، واستعمال الألفاظِ الرَّخْوة المُتخاذِلة: سيِّدي، مولاي، ونحوها من ألفاظ الخَدَم والعبيدِ.

وانْظُر ما يقولُه العَلاَّمة السَّلَفي الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الجزائري (م سنة ١٣٨٠هـ) رحمه الله تعالى في «البصائر»؛ فإنه فائقُ السِّياق[١].

١٩ ـ رأسُ مالِك ـ أيها الطالبُ ـ من شيخِك:

القدوةُ بصالحِ أخلاقهِ وكريمِ شمائلهِ، أمّا التَّلَقِّي والتلقينُ؛ فهو ربحٌ زائدٌ، لكن لا يأخُذْك الاندفاعُ في محبّة شيخك فتقعَ في الشناعةِ من حيثُ لا تدري وكلُّ من ينظر إليك يَدْري، فلا تُقَلِّده بصوتٍ ونَغْمةٍ، ولا مشيةٍ وحركةٍ وهيئةٍ؛ فإنّه إنما صار شيخاً جليلاً بتلك، فلا تَسْقُط أنت بالتَّبَعِيَّةِ له في هذهِ.

٢٠ ـ نَشَاطُ الشيخ في درسهِ:

يكونُ على قَدْرِ مدارِكِ الطالب في استماعهِ، وجَمْعِ نفسه، وتفاعُلِ

(١) «آثاره» (٤ / ٤٠ ـ ٤٢).

أحاسيسه مع شيخِه في دَرْسِهِ، ولهذا فاحْذَر أن تكونَ وسيلةَ قطعٍ لعلمهِ؛ بالكَسَلِ، والفُتورِ والاتِّكاء، وانْصِرَافِ الذِّهن وفُتورِهِ.

قال الخطيبُ البغداديُّ رحمه الله تعالى[1]:

«حَقُّ الفائدة أن لا تُساقَ إلاّ إلى مُبْتَغيها، ولا تُعْرضَ إلاّ على الراغبِ فيها، فإذا رأى المُحَدِّثُ بعض الفُتور من المستمعِ؛ فَلْيَسكُتْ؛ فإنّ بعض الأُدباء قال: نشاطُ القائلِ على قَدْر فَهْمِ المستمعِ».

ثم ساق بسنده عن زَيْد بن وَهْب، قال:

«قال عبدُالله: حَدِّث القومَ ما رَمَقوك بأبصارهم، فإذا رأيتَ منهم فَتْرَةً؛ فانْزَع» اهـ.

٢١ ـ الكتابةُ عن الشيخِ حالَ الدَّرْسِ والمذاكرةِ:

وهي تختلفُ من شيخٍ إلى آخرَ، فافْهَم.

ولهذا أدبٌ وشَرْطٌ:

أما الأدبُ؛ فينبغي لك أن تُعْلِمَ شيخَك أنك ستكتبُ، أو كتبتَ ما سمعتَه مذاكرةً.

وأما الشرطُ؛ فَتُشير إلى أنك كتبتَه من سماعِه من درسِهِ[2].

---

(١) «الجامع» (١ / ٣٣٠).

(٢) «الجامع» (٢ / ٣٦ ـ ٣٨).

٢٢ ـ التَّلَقِّي عن المُبْتدعِ :

احْذَر (أبا الجهل) المبتدعَ، الذي مَسَّهُ زيغُ العقيدةِ، وغَشِيَتْهُ سُحُبُ الخرافةِ، يُحَكِّمُ الهوى ويُسَمِّيه العقلَ، ويَعْدِلُ عن النصِّ، وهل العقلُ إلا في النَّصِّ؟! ويَسْتَمْسِكُ بالضعيفِ ويَبْعِدُ عن الصحيح، ويُقال لهم أيضاً: «أهل الشبهات»[١]، و«أهل الأهواء»، ولذا كان ابنُ المبارك[٢] رحمه الله تعالى يُسَمِّي المبتدعة: «الأصاغر».

وقال الذَّهبي رحمه الله تعالى[٣]:

«إذا رأيتَ المُتَكَلِّمَ المُبتـدعَ يقول: دعنا من الكتابِ والأحاديثِ، وهات (العقلَ)؛ فاعلم أنَّه أبو جَهْلٍ، وإذا رأيتَ السالكَ التوحيديَّ يقول: دَعْنا من النقل ومن العقلِ، وهات الذوقَ والوَجْدَ؛ فاعْلَمْ أنه إبليسُ قد ظهر بصورة بَشَر، أو قد حَلَّ فيه، فإن جَبُنْتَ منه فاهرُب، وإلا؛ فاصْرَعه، وابْرُكْ على صَدْرِه، واقرأ عليه آيَةَ الكُرسيِّ، واخْنُقْه» اهـ.

وقال أيضاً رحمه الله تعالى[٤]:

«وقـرأتُ بخطِّ الشيخ المُـوَفَّق قال: سَمِعْنـا دَرْسَه ـ أي: ابن أبي عَصْرون ـ مع أخي أبي عُمَر وانقطعنا، فسمعتُ أخي يقول: دخلتُ عليه بعـد، فقـال: لِمَ انقطعتُم عنّي؟ قلتُ: إنَّ ناساً يقولون: إنك أشعريٌّ،

---

(١) «الجامع» (١ / ١٣٧).

(٢) في «الزهد» (٦١) له، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (رقم ٦٩٥).

(٣) «السير» (٤ / ٤٧٢).

(٤) «السير» (٢١ / ١٢٩).

فقال: واللهِ ما أنا أشعريّ. هذا معنى الحكاية» اهـ.

وعن مالكٍ رحمه الله تعالى قال[1]:

«لا يُؤخَذُ العلمُ عن أربعةٍ: سفيهٍ يُعْلِنُ السَّفَه وإن كان أروى الناس، وصاحبِ بدعةٍ يدعو إلى هواه، ومَن يكذبُ في حديثِ الناس، وإنْ كنتُ لا أتَّهِمُه في الحديثِ، وصالحٍ عابدٍ فاضلٍ إذا كان لا يحفظُ ما يُحَدِّثُ به».

فيا أيُّهـا الطالبُ! إذا كُنتَ في السَّعـةِ والاختيار؛ فلا تأخُـذ عن مبتـدعٍ: رافضيٍّ، أو خارجيٍّ، أو مُرْجِىءٍ، أو قَدَريّ، أو قُبـوريّ، . . . وهكـذا؛ فإنَّـك لن تبلغَ مبلغَ الرجال ـ صحيحَ العَقْد في الدِّين، متينَ الاتِّصال بالله، صحيحَ النَّظر، تَقْفو الأَثَرَ ـ إلَّا بهَجْر المبتدعةِ وبِدَعِهم.

وكُتُبُ السِّيَرِ والاعتصـامِ بالسنـةِ حافلةٌ بإجهـاز أهـل السنـةِ على البدعةِ، ومُنابَذَةِ المبتدعةِ، والابتعادِ عنهم؛ كما يبتعدُ السليمُ عن الأَجْرَبِ المريضِ، ولهم قَصَصٌ وواقعاتٌ يطولُ شَرْحُها[2]، لكن يطيبُ لي الإشارةُ إلى رؤوس المُقَيِّدات فيها:

فقـد كان السَّلَفُ رحمهم الله تعـالى يحتسبون الاستخفافَ بهم، وتحقيرَهم ورَفْضَ المبتدع وبدعتهِ، ويُحَذِّرون من مُخالَطتهم، ومشاورتِهم، ومؤاكلتِهم، فلا تتوارىٰ نارُ سُنِّيٍّ ومبتدعٍ.

---

(١) كما في «السِّيَر» (٨ / ٦١).

(٢) وفي رسالة «هَجْر المبتدع» لراقمهِ أصولٌ مهمّة في هذه المسألة.

وكان من السلف من لا يُصَلِّي على جنازةِ مبتدعٍ ، فينصرفُ، وقد شوهد من العلَّامة الشيخ محمد بن إبراهيم (م سنة ١٣٨٩هـ) رحمه الله تعالى ، انصرافُه عن الصلاةِ على مبتدعٍ .

وكان من السَّلَف من ينهى عن الصلاةِ خَلْفَهم، وينهى عن حكايةِ بدعهم؛ لأنَّ القلوبَ ضعيفةٌ، والشُّبَه خطَّافةٌ.

وكان سَهْل بن عبدالله التُّسْتَري لا يرى إباحةَ الأكل من المَيْتةِ . . للمُبتدع عند الاضطرار؛ لأنّه باغٍ ؛ لقولِ الله تعالى : ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غيرَ باغٍ . . .﴾ الآية، فهو باغٍ ببدعتهِ[1].

وكانوا يطردُونَهم من مجالسِهم ؛ كما في قصّة الإمام مالك رحمه الله تعالى مع من سأله عن كيفيّةِ الاستواءِ، وفيه بعدَ جوابهِ المشهورِ: «أظنُّك صاحبَ بدعةٍ»، وأَمَرَ به، فأُخْرِجَ.

وأخبارُ السَّلَف متكاثرةٌ في النُّفرة من المبتدعةِ وهَجْرِهم ؛ حَذَراً من شَرِّهم، وتحجيماً لانتشارِ بِدَعِهم، وكَسْراً لنفوسِهم حتى تَضْعُفَ عن نشر البِدَعِ ، ولأنَّ في معاشرة السُّنِّيِّ للمبتدعِ تزكيةً له لدى المبتدىء والعاميِّ ـ والعاميُّ: مُشْتَقٌّ من العمىٰ ، فهو بيدِ من يقودُهُ غالباً ـ.

ونــرى في كتب المُصْــطَلح ، وآداب الـطلب، وأحكـام الجـرح والتعديلِ : الأخبارَ في هذا[2].

---

(١) «الفتاوى» (٢٨ / ٢١٨)، انظرها؛ فهو مهم.

(٢) منها في : «الجامع للخطيب» (باب: تخيُّر الشيوخ إذا تباينت أوصافهم) (١٠ =

فيا أيها الطالبُ! كُن سَلَفياً على الجادّة، واحْذر المبتدعةَ أن يفتنوك؛ فإنّهم يُوَظِّفـون للاقتنـاصِ والمُخـاتَلةِ سُبُـلاً، يفتعلون تعبيدَها بالكلامِ المَعْسول ـ وهو: (عسل) مقلوبٌ ـ وهُطولِ الدمعةِ، وحُسْنِ البِزَّةِ، والإغراءِ بالخيالاتِ، والإدهاشِ بالكراماتِ، ولَحْسِ الأيدِي، وتقبيلِ الأكتافِ. . وما وراءَ ذلك إلاّ وَحَمُ البدعةِ، وَرَهَجُ الفتنةِ، يَغْرِسُها في فؤادِك، ويَعتمِلُك في شِراكِه، فواللهِ لا يَصْلُح الأعمى لقيادةِ العميانِ وإرشادهم.

أمّا الأخذُ عن علماء السنةِ؛ فَالْعَقِ العَسَل ولا تَسَل.

وفّقـك اللهُ لرُشْدِكِ؛ لتنهلَ من ميراثِ النّبوةِ صافياً، وإلا؛ فَلْيَبْك على الدِّين من كان باكياً.

وما ذكرتُه لك هو في حال السَّعةِ والاختيارِ، أمّا إن كُنْتَ في دراسةٍ نظاميّةٍ لا خيارَ لك، فاحْـذَرْ منـه، مع الاستعـاذةِ من شَرِّه؛ باليَقَظة من دسائـسه على حَدِّ قولهم: «اجْنِ الثّمارَ وألْقِ الخَشَبةَ في النار»، ولا تتخاذَلْ عن الطَّلَب، فأخشى أن يكونَ هذا من التَّوَلِّي يومَ الزَّحْفِ، فما عليك إلاّ أن تَتَبيَّنَ أمْرَه وتَتَّقي شَرَّه وتكشفَ سِتْرَه.

ومِن النُّتَفِ الطريفةِ أنّ أبا عبدالرحمن المُقرىء حدَّث عن مُرجىء، فقيل له: لِمَ تُحَدِّث عن مُرْجىء؟ فقال:

= / ١٢٧)، وفي كتاب: «مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للسامرائي (ص ٢١٥ ـ ٢٥٥)، وهو مهمٌّ، وفي (التحوُّل المذهبي) من «الإسفار» لراقمِه أمثلةٌ من آثار مخالطتهم.

«أبيعُكم اللَّحْمَ بالعِظام»[1].

فالمُقرِئ رحمه اللهُ تعالى حَدَّث بلا غَرَرٍ ولا جهالةٍ إذ بيَّنَ فقال: «وكان مُرجِئاً».

وما سطرتُه لك هُنا هو من قواعِدِ معتقدِك؛ عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة، ومنه ما في «العقيدة السَّلَفيَّة» لشيخ الإسلام أبي عُثْمانَ إسماعيلَ بن عبدِالرحمٰن الصَّابُونيِّ (م سنة ٤٤٩هـ)؛ قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى[2]:

«ويُبغضون أهلَ البدعِ الذين أحْدَثوا في الدِّين ما ليس منه، ولا يُحِبُّونهم، ولا يَصْحَبُونهم، ولا يَسْمعون كلامَهم، ولا يُجالِسُونهم، ولا يُجادلونهم في الدِّين، ولا يُناظرونهم، ويَرَون صَوْنَ آذانِهم عن سماعِ أباطيلِهم التي إذا مرَّت بالآذانِ، وَقَرَّت في القلوبِ؛ ضَرَّت، وجَرَّت إليها من الوساوسِ والخطراتِ الفاسدةِ ما جَرَّت، وفيه أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ قولَه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾» اهـ.

وعن سُليمان بن يَسَار أن رجلاً يُقال له: صَبيغٌ، قدم المدينةَ، فجعل يسألُ عن متشابهِ القرآن؟ فأرسل إليه عُمَرُ رضي الله عنه وقد أعَدَّ لَهُ عَراجينَ النَّخْل، فقال: مَنْ أنت؟ قال: أنا عبدُالله صَبيغٌ، فأخذ عُرْجوناً من تلك

---

(١) الخطيب في «جامعه» (١ / ٢٢٤).

(٢) (ص١٠٠).

العَراجين، فضَرَبه حتى دمي رأسُه، ثم تركَه حتى برَأ، ثم عاد، ثم تَركه حتى برأ، فدعى به ليعودَ، فقال: إن كنتَ تريدُ قتلي، فاقتُلْني قتلاً جميلاً، فأذِنَ له إلى أرضِه، وكَتَبَ إلى أبي موسى الأشعريِّ باليمن: لا يُجالِسْه أحدٌ من المسلمين.

رواه الدَّارِمي.

وقيلَ: كان مُتَّهماً برأي الخوارج.

والنَّوويُّ رحمه الله تعالى قال في كتاب «الأذكار»:

«باب: التَّبرِّي من أهل البِدَع والمعاصي».

وذَكَرَ حديثَ أبي موسى رضي الله عنه: «أنَّ رسول الله ﷺ بَرِيءَ من الصالقةِ، والحالقة، والشاقّة». متفق عليه.

وعن ابن عُمَر براءَتَه من القَدَريةِ. رواه مسلم(١).

والأمرُ في هَجْرِ المُبتدع يَنْبَني على مُراعاة المصالحِ وتكثيرِها، ودَفْع المفاسدِ وتقليلِها، وعلى هذا تتنزَّل المشروعيةُ من عَدَمِها؛ كما حرَّره شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله تعالى في مواضعَ(٢).

والمبتدعةُ إنما يَكْثُرون ويَظْهَرُون؛ إذا قلَّ العلمُ، وفشا الجهلُ.

وفيهم يقولُ شيخُ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى:

---

(١) وانـظر أبحاثاً مهمة في: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» رحمه الله تعالى (٢ / ١٣٢، ٥ / ١١٩، ١٤ / ٤٥٩ ـ ٤٦٠، ٣٦ / ١١٨).

(٢) منها في: «مجموع الفتاوى» (٢٨ / ٢١٣، ٢١٦ ـ ٢١٨).

«فإنَّ هذا الصِّنْفَ يكثُرون ويظهرون إذا كَثُرت الجاهليةُ وأهلُها، ولم يكن هناك من أهل العلم بالنبوَّة والمتابعةِ لها مَن يُظْهر أنوارَها الماحيَة لظُلمةِ الضلالِ، ويكشفُ ما في خلافِها من الإفكِ والشِّرْكِ والمُحالِ» اهـ.

فإذا اشتدَّ ساعدُك في العلم؛ فاقْمَع المبتدعَ وبدعتَه بلسانِ الحُجَّةِ والبَيَانِ، والسلامُ.

□□□□□

الفصل الرابع
أَدَبُ الزَّمَالَةِ

٢٣ ـ احْذَرْ قرينَ السُّوء:

كما أنَّ العِرْقَ دَسَّاس[١]؛ فإنَّ «أَدَبَ السُّوءِ دسَّاس»[٢]؛ إذ الطبيعةُ نقَّالة، والطِّباع سَرَّاقة، والناسُ كأسرابِ القَطَا مجبولون على تشبُّهِ بعضِهم ببعض، فاحْذَرْ مُعاشَرَةَ مَنْ كان كذلك؛ فإنه العَطَبُ، «والدَّفْعُ أسهلُ من الرَّفْع».

وعليهِ؛ فتخيَّر للزمالةِ والصداقةِ من يُعينك على مطلبِك، ويُقَرِّبُك إلى ربِّك، ويوافِقُك على شريفِ غَرَضِك ومقصدِك، وخُذْ تقسيم الصَّديق في أدقِّ المعايير[٣]:

١ ـ صديقُ منفعةٍ.

---

(١) وفي ذلك حديثٌ موضوعٌ، انظر له: «العِلَل المتناهية» (٢ / ١٢٣، ١٢٧)، و«شرح الإحياء» (٥ / ٣٤٨).

(٢) «شرح الإحياء» (١ / ٧٤).

(٣) «محاضرات إسلامية» لمحمد الخضر حسين (ص١٢٥ ـ ١٣٦).

٢ ـ صديقُ لذَّةٍ.

٣ ـ صديقُ فضيلةٍ.

فالأوّلانِ مُنْقطعانِ بانقطاعِ مُوجِبِهما، المنفعةُ في الأول، واللذَّة في الثاني.

وأمّا الثالثُ فالتعويلُ عليه، وهو الذي باعِثُ صداقتهِ تبادُلُ الاعتقادِ في رسوخِ الفضائل لدى كُلٍّ منهما.

وصديقُ الفضيلةِ هذا «عملةٌ صعبةٌ» يَعزُّ الحصولُ عليها.

ومِن نفيسِ كلام هشامِ بنِ عبدالملك «م سنة ١٢٥هـ» قولُه(١):

«ما بَقِيَ من لذَّاتِ الدنيا شيءٌ إلّا أخٌ أرفعُ مؤونَة التحفُّظ بيني وبينَه» اهـ.

وَمِن لطيفِ ما يُقَيَّدُ قولُ بعضِهم(٢):

«العُزلةُ من غيرِ عينِ العلم: زَلَّة، ومنِ غير زاي الزُّهد: عِلّة».

□□□□□

---

(١) «طبقات النسَّابين» (ص٣١).

(٢) «العزلة» للخطّابي.

الفصل الخامس

آدَابُ الطَّالِب في حَيَاته العِلْميّةِ

٢٤ - كِبَرُ الهِمَّة في العلمِ :

مِنْ سَجَايا الإسلامِ التَّحَلِّي بِكِبَر الهِمَّةِ ؛ مركزِ السالبِ والموجبِ في شخصك، الرقيب على جوارِحك، كِبَرُ الهِمّة يجلبُ لك بإذن اللهِ خيراً غيرَ مجذوذٍ؛ لترقىٰ إلى دَرجاتِ الكمال، فَيُجْرِي في عُروقك دمَ الشهامةِ، والركضَ في ميدان العِلمِ والعَمَل، فلا يراك الناسُ واقفاً إلا على أبوابِ الفضائلِ ، ولا باسِطاً يديك إلا لِمُهِمَّات الأمور.

والتحلِّي بها يسلُبُ منك سفاسِفَ الآمالِ والأعمالِ ، ويجتثُّ منكَ شجرةَ الذُّلِّ والهوانِ والتملُّق والمُداهَنة، فكبيرُ الهمةِ ثابتُ الجأشِ، لا تُرْهِبُهُ المواقفُ، وفاقِدُها جبانٌ رِعْديدٌ، تُغلق فَمَه الفهاهةُ.

ولا تَغلَط فتخلِطَ بين كِبَرِ الهمّة وَالكِبْرِ؛ فإنَّ بينهما من الفرق كما بينَ السماءِ ذات الرَّجْعِ والأرضِ ذات الصَّدْعِ .

كِبَرُ الهمّةِ حِلْيةُ وَرَثةِ الأنبياءِ، والكِبْرُ داء المرضىٰ بعلّة الجبابرةِ البُؤسَاء.

فيا طالَب العلمِ ! ارْسُم لنفسِك كِبَرَ الهمّةِ، ولا تَنفلِتْ منه وقد أومأ الشـرعُ إليهـا في فِقْهياتٍ تُلابس حياتَـك؛ لتكـون دائمـاً على يَقَظة من اغتنامِها، ومنها: إباحةُ التيمُّم للمكلَّف عند فَقْد الماء، وعدمُ إلزامِهِ بقَبول هبةِ ثَمَن الماء للوضُوء؛ لما في ذلك من المِنَّةِ التي تُنال من الهمّة منالاً، وعلى هذا فَقِسْ[1]، واللهُ أعلمُ.

٢٥ ـ النَّهْمَةُ في الطَّلَب:

إذا علمتَ الكلمةَ المنسوبة إلى الخليفةِ الراشد عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي اللهُ عنه: «قيمة كل امرىء ما يحسنه»، وقد قيلَ: ليس كلمةٌ أحضُّ على طَلَب العلم منها؛ فاحْذَر غَلَطَ القائل: ما تركَ الأولُ للآخِر. وصوابه: كم تركَ الأولُ للآخِر!

فعليك بالاستكثارِ من ميراثِ النبيِّ ﷺ، وابذُلِ الوُسعَ في الطَّلَب والتحصيل والتدقيقِ، ومهما بَلَغْتَ في العلم؛ فتذكَّر: «كَمْ ترك الأولُ للآخِر»!

وفي ترجمةِ أحمد بن عبدالجليل من «تاريخ بغداد» للخطيبِ ذكرٌ من قصيدةٍ له:

لا يكـونُ السَّـريُّ مِثْـلَ الـدَّنِيِّ
لا ولا ذُو الـذَّكـاء مثـلَ الـغبيِّ

---

(١) «السعادة العظمى» لمحمد الخضر حسين (ص٧٦ ـ ٧٨).

قيمـةُ المَـرْءِ كُلَّمـا أحسنَ المَرْ
ءُ قضـاةُ مِنَ الإمـامِ عليِّ

٢٦ ـ الرحلة للطلب:

«من لم يكن رُحْلَةَ لن يكون رُحَلَة»(١).

فمَنْ لم يَرْحل في طَلَب العلم؛ للبحثِ عنِ الشُّيوخ، والسياحةِ في الأَخْذِ عنهم؛ فَيَبْعُدُ تأمُّله لِيُرْحَلَ إليه؛ لأنَّ هؤلاء العُلماءَ الذين مَضى وقتٌ في تعلُّمهم، وتعليمهم، والتَّلَقِّي عنهم: لديهم من التحريرات، والضَّبْطِ، والنُّكات العلمية، والتَّجارِب، ما يَعِزُّ الوقوفُ عليه أو على نظائرِه في بُطون الأسفار.

واحْـذر القُعـودَ عن هذا على مسلك المُتَصَـوِّفـة البطَّالين، الذين يُفَضِّلون «علْم الخِرَق» على «علم الوَرَق».

وقد قيل لبعضِهم: الا ترحلُ حتى تسمعَ من عبدالرزَّاق؟ فقال: ما يصنعُ بالسماعِ مِنْ عبدالرزَّاق مَنْ يسمعُ من الخلَّاق؟!

وقال آخَرُ:

إذا خاطَـبُـونـي بِعِـلْـم الْـوَرَق
بَرَزْتُ عَلَيْهِـم بِعِـلْمِ الْـخِـرَق

فاحْذَر هؤلاء؛ فإنَّهم لا للإسلامِ نَصَروا، ولا للكُفر كَسَروا، بل فيهم من كان بأساً وبلاءً على الإسلامِ.

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم».

٢٧ ـ حِفْظُ العلمِ كتابةً[١]:

ابذُلِ الجُهْدَ في حفظ العلم (حفظُ كتابٍ)؛ لأنّ تقييدَ العلم بالكتابةِ أمانٌ من الضيَّاعِ، وقَصْرٌ لمسافةِ البحث عند الاحتياجِ، لا سيّما في مسائلِ العلمِ التي تكونُ في غير مظانِّها، ومن أَجَلِّ فوائده أنه عند كِبَرِ السنِّ وضَعْف القوىٰ يكون لديك مادّةٌ تَسْتَجِرُّ منها مادّةً تكتبُ فيها بِلا عناءٍ في البحث والتقصِّي.

ولذا؛ فاجعل لك (كُنَاشاً)[٢] أو (مُذَكِّرة) لتقييد الفوائدِ والفرائدِ والأبحاثِ المنثورةِ في غير مظانِّها، وإنِ استعملتَ غلافَ الكتابِ لتقييدِ ما فيه من ذٰلك؛ فَحَسَنٌ، ثم تنقُلُ ما يجتمعُ لك بَعْدُ في مذكّرة؛ مرتباً له على الموضوعاتِ، مُقَيِّداً رأسَ المسألة، واسْمَ الكتابِ، ورقمَ الصفحة والمُجلّد، ثم اكْتُب على ما قَيَّدتَهُ: «نُقِل»؛ حتى لا يختلطَ بما لم يُنْقَل؛ كما تكتبُ: «بَلَغَ صفحة كذا» فيما وَصَلْتَ إليه من قراءةِ الكتاب حتى لا يفوتَك ما لم تبلُغْه قراءةً.

وللعُلماء مؤلفاتٌ عدّة في هٰذا؛ منها: «بدائع الفوائد» لابن القيِّم، و«خبايا الزوايا» للزَّركَشي، ومنها: كتاب «الإغفال»، و«بقايا الخبايا»، وغيرها.

---

(١) «الجامع للخطيب» (٢ / ١٦، ١٨٣ ـ ١٨٥).

(٢) الكُنَاش ـ بضم الكاف، وتخفيف النون، وشين معجمة؛ على وزن (غراب) ـ؛ لفظ سرياني؛ بمعنى: المجموعة، والتذكرة. وانظر «التراتيب الإدارية» (٢ / ٢٧٠).

وعليه؛ فَقَيِّدِ العلمَ بالكتابِ[1]، لا سيّما بدائعَ الفوائدِ في غير مظانِّها، وخَبَايا الزوايا في غير مساقِها، ودُرَراً منثورةً تراها وتسمعُها تخشى فواتَها.. وهكذا؛ فإنّ الحفظَ يضعُفُ، والنِّسيان يَعْرِضُ.

قال الشَّعْبي:

«إذا سمعتَ شيئاً؛ فاكْتُبْه، ولو في الحائطِ».

رواه خَيْثَمةُ.

وإذا اجتمع لديك ما شاء اللهُ أن يجتمعَ؛ فَرَتِّبْه في (تذكِرة) أو (كُنَاش) على الموضوعاتِ؛ فإنّه يُسْعِفُك في أضيقِ الأوقاتِ التي قد يَعْجَزُ عن الإدراكِ فيها كبارُ الأثباتِ.

٢٨ ـ حِفْظُ الرِّعايةِ:

ابْذُلِ الوُسْعَ في حفظِ العلمِ (حِفْظَ رعايةٍ) بالعملِ والاتِّباعِ؛ قال الخطيبُ البغداديُّ رحمه الله تعالى[2]:

«يجبُ على طالبِ الحديثِ أن يُخلص نيّتَه في طَلَبِهِ، ويكونَ قصدُه وَجْهَ الله سبحانه.

وَلْيَحْذَرْ أن يجعلَه سبيلاً إلى نَيْل الأَعْراض، وطريقاً إلى أَخذ الأَعْواض؛ فقد جاء الوعيدُ لمن ابْتَغى ذلك بعلمِه.

---

(١) وقد صحّ نحوُ هذا الأمرِ مرفوعاً إلى النبيِّ ﷺ، فانظره في «السلسلة الصحيحة» (رقم ٢٠٢٦).

(٢) «الجامع للخطيب» (١ / ٨١، ٨٣، ٨٥، ٨٧، ١٤٢).

وَلْيَتَّقِ المُفاخرةَ والمُباهاةَ به، وأن يكونَ قصدُه في طَلَب الحديثِ نَيْلَ الرئاسةِ واتِّخاذَ الأتباعِ وعَقْدَ المجالسِ؛ فإنَّ الآفة الداخلةَ على العُلماء أكثرُها من هذا الوجهِ.

وَلْيَجْعل حِفظَه للحديث حفظَ رعايةٍ لا حفظَ روايةٍ؛ فإنَّ رُواةَ العلومِ كثيرٌ، ورُعاتَها قليلٌ، ورُبَّ حاضرٍ كالغائبِ، وعالمٍ كالجاهلِ، وحاملٍ للحديثِ ليس معه منه شيءٌ إذ كان في اطِّراحِهِ لحُكمِهِ بمنزلةِ الذاهبِ عن معرفتِهِ وعلمِهِ.

وينبغي لطالبِ الحديثِ أن يتميَّز في عامَّة أُمورِهِ عن طرائقِ العَوَامِّ باستعمالِ آثارِ رسول الله ﷺ ما أمْكَنَه، وتوظيفِ السُّنَن على نفسِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾» اهـ.

٢٩ ـ تعاهُدُ المحفوظاتِ:

تَعاهَدْ عِلْمَك من وقتٍ إلى آخَرَ؛ فإنَّ عدَم التعاهُدِ عنوانُ الذَّهابِ للعلمِ مهما كان.

عن ابن عُمَر رضي الله عنهما أن رسولَ الله ﷺ قال:

«إنَّما مَثَلُ صاحِبِ القرآن كَمَثل صاحبِ الإبل المُعَقَّلة، إنْ عاهَدَ عليها؛ أمْسَكَها، وإنْ أطْلَقَها؛ ذهبت».

رواه الشيخانِ، ومالكٌ في «الموطَّأ».

قال الحافظُ ابنُ عبدالبَرِّ رحمه الله[1]:

(١) «التمهيد» (١٤ / ١٣٣ ـ ١٣٤).

«وفي هذا الحديثِ دليلٌ على أنّ من لم يتعاهَدْ عِلْمَه ؛ ذهب عنه أيْ مَنْ كان ؛ لأنّ عِلْمَهم كان ذلك الوقتَ القُرآنُ لا غير، وإذا كان القُرآنُ المُيَسَّر للذِّكر يذهبُ إن لم يُتَعاهَد ؛ فما ظنُّك بغيره من العلومِ المعهودةِ؟!

وخيرُ العلوم ما ضُبِطَ أصلُه، واسْتُذْكِر فَرْعُه، وقادَ إلى اللهِ تعالى، ودَلَّ على ما يرضاه» اهـ.

وقال بعضُهم[1]: «كُلُّ عِزٍّ لم يُؤَكَّدْ بعلمٍ ؛ فإلى ذُلٍّ مصيرُه» اهـ.

٣٠ ـ التفقُّهُ بتخريجِ الفُروعِ على الأصولِ :

من وراء الفقهِ: التفقُّهُ، ومُعْتَمِلُهُ هو الذي يُعَلِّق الأحكامَ بمَدَارِكِها الشرعيّةِ.

وفي حديثِ ابن مَسْعود[2] رضي الله عنه: أنّ رسولَ الله ﷺ قال:

«نَضَّر اللهُ امْرَءاً سَمِعَ مقالَتي فَحَفِظَها، ووَعاها، فَأَدَّاهَا كما سَمِعَها، فَرُبَّ حاملِ فقهٍ ليسَ بفقيهٍ، ورُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقهُ منه».

قال ابنُ خَيْر[3] رحمه اللهُ تعالى في فِقْهِ هذا الحديث:

«وفيه بيانُ أنَّ الفِقْهَ هو الاستنباطُ والاستدراكُ في معاني الكلامِ من طريق التفهُّم، وفي ضِمْنِه بيانُ وجوب التفقُّه، والبحثُ على معاني

(١) «شرح الإحياء» (١ / ٩٣).

(٢) رواه أحمد (٤١٥٧)، والترمذي (١٠ / ١٢٤)، وابن ماجه (١ / ٨٥)؛ بسند صحيح. وهو حديثٌ متواترٌ.

(٣) في «فهرسته» (ص٩).

الحديثِ، واستخراجُ المكنون من سِرِّه» اهـ.

وللشَيْخينِ؛ شيخ الإسلام ابن تيميّة، وتلميذِه ابن قيِّم الجَوْزيّةِ رحمهما الله تعالى، في ذلك القِدْحُ المُعَلّى، ومَنْ نَظَر في كُتُب هذين الإمامين؛ سلك به النَّظَرُ فيها إلى التفقُّه طريقاً مستقيماً.

ومِن مليحِ كلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى قولُهُ في مجلسٍ للتفقُّه(١):

«أما بعدُ؛ فقد كُنّا في مجلس التفقُّهِ في الدين، والنَّظَرِ في مدارك الأحكام المشروعةِ؛ تَصْويراً، وتَقْريراً، وتأْصيلاً، وتَفْصيلاً، فوقَعَ الكلامُ في... فأقولُ: لا حَوْلَ ولا قُوّة إلا بالله، هذا مبنيٌّ على أصلٍ وفصلينِ...».

واعْلَمَ أرشدك اللهُ أنّ بين يدي التفقُّه: (التَّفَكُّرَ)(٢)؛ فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالى دعا عِبادَه في غيرِ ما آيةٍ من كتابِه إلى التحرُّكِ بإجالةِ النَّظَرِ العميقِ في (التفكُّر) في مَلَكوتِ السمٰواتِ والأرضِ وإلى أن يُمْعِنَ المرءُ النَّظَر في نفسِهِ، وما حولَه؛ فتحاً للقوىٰ العقليّةِ على مِصْراعَيْها، وحتى يصلَ إلى تقويةِ الإيمانِ، وتعميقِ الأحكامِ، والانتصارِ العلمِّي: ﴿كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢١ / ٥٣٤).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (ص١٩٦ ـ ٣٢٤)، و«مدارج السالكين» (١/ ١٤٦)، و«التفسير الإسلامي للتاريخ» لعماد الدين خليل (ص٢١٠ ـ ٢١٥).

وعليه؛ فإنَّ «التفقُّـه» أبعـدُ مدىً من (التفكُّر)؛ إذ هو حصيلتُه وإنتاجُه، وإلاَّ ﴿فما لِهؤلاءِ القَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُون حَدِيثاً﴾.

لكنَّ هذا التفقُّـه محجوزٌ بالبرهانِ، محجورٌ عن التشهِّي والهوىٰ: ﴿ولَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهم بَعْدَ الَّذي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

فيا أيُّها الطالبُ! تَحَلَّ بالنظرِ والتفكُّرِ، والفقهِ والتفقُّهِ؛ لعلَّك أنْ تتجاوَزَ مِنْ مرحلةِ الفقيهِ إلى (فقيهِ النَّفْس) كما يقولُ الفقهاء، وهو الذي يُعَلِّقُ الأحكامَ بمداركِها الشرعيةِ، أو (فقيهِ البَدَن) كما في اصْطِلاحِ المُحَدِّثين[1].

فأَجِلِ النَّظَرَ عند الوارِداتِ بتخريجِ الفُروعِ على الأُصولِ، وتمامِ العنايةِ بالقواعدِ والضوابطِ.

وأَجْمِعْ للنَّظَرِ في فَرْعٍ ما بين تتبُّعِهِ وإفراغِهِ في قالَبِ الشريعةِ العامِّ من قواعدِها وأصولِها المُطَّرِدَةِ؛ كقواعدِ المصالحِ، ودَفْعِ الضَّرَرِ والمشقَّةِ، وجَلْبِ التيسيرِ، وسَدِّ باب الحِيَلِ، وسدِّ الذرائعِ.

وهكذا هُدِيتَ لِرُشْدِك أبداً؛ فإنَّ هذا يُسْعِفُك في مواطنِ المضايقِ.

وعليك بالتفقُّه ـ كما أسلفتُ ـ في نُصوصِ الشَّرْعِ، والتبصُّر فيما يَحُفُّ أحوالَ التشريعِ، والتأمُّلِ في مقاصدِ الشريعةِ، فإنْ خلا فَهْمُك من

---

(١) وانظر عن قولهم: «فقيه البدن»، «معالم الإيمان» (٢ / ٣٣٦، ٣٤٠) و«الثقات» لابن حبان (٩ / ٢٤٢).

هذا، أو نَبَا سَمْعُكَ؛ فإنّ وَقْتَك ضائعٌ، وإنّ اسْمَ الجهلِ عليك لَوَاقعٌ.

وهـذه الخَلّةُ بالـذاتِ هي التي تُعـطيك التمييزَ الـدقيقَ، والمِعْيارَ الصحيحَ، لِمدىٰ التحصيلِ والقُدرةِ على التخريجِ:

فالفقيهُ هو مَن تَعْرِضُ له النازلةُ لا نَصّ فيها فيقتبسُ لها حُكماً.

والبـلاغيُّ ليس مَنْ يذكُرُ لك أقسامَها وتفريعاتِها، لكنّه مَنْ تَسْري بصيرتُه البلاغيّةُ في كتابِ اللهِ، مَثَلاً، فَيخرُج من مكنونِ علومهِ وجوهَها، وإنْ كَتَبَ أو خَطَب؛ نَظَمَ لك عِقْدَها.

وهٰكذا في العلومِ كافّةً.

٣١ ـ اللُّجوءُ إلى اللهِ تعالىٰ في الطَّلَب والتَّحْصيلِ:

لا تَفْزَعْ إذا لم يُفتح لك في علمٍ من العلومِ؛ فقد تعاصت بعضُ العلوم على بعضِ الأعلامِ المشاهيرِ، ومنهم من صَرَّح بذلك كما يُعلم من تراجِمهم، ومنهُم: الأصْمعيُّ في علم الْعَروض، والرُّهاويُّ الْمُحَدِّث في الخَطّ، وابن الصلاّح في المنطق، وأبو مُسلم النَّحْوي في علم التصريف، والسُّيوطي في الحِساب، وأبو عُبيدة، ومحمّد بن عبدالباقي الأنصاري، وأبو الحَسَن القَطيعي، وأبو زكريا يحيى بن زياد الفَرّاء، وأبو حامد الغَزالي، خمستُهم لم يُفتح لهم بالنحوِ.

فيا أيُّها الطالبُ! ضاعِفِ الرَّغْبَة، وافْزَع إلى اللهِ في الدُّعاءِ واللجوءِ إليه والانكسارِ بين يديهِ.

وكان شيخُ الإسلام ابنُ تيميّة رحمه الله تعالى كثيراً ما يقولُ في دُعائهِ

إذا استعصى عليه تفسيرُ آيةٍ من كتاب الله تعالى :

«اللهمّ يا مُعَلِّمَ آدمَ وإبراهيمَ عَلِّمني ، ويا مُفَهِّمَ سُليمان فَهِّمْني» .

فيجدُ الفَتْحَ في ذلك[1] .

٣٢ ـ الأمانةُ العلميةُ :

يجبُ على طالبِ العلمِ فائقُ التحلِّي بالأمانة العلميةِ ، في الطَّلَبِ ، والتحمُّلِ ، والعَمَلِ ، والبلاغِ ، والأداءِ :

«فإنَّ[2] فلاحَ الأُمَّةِ في صلاح أعمالِها ، وصلاحُ أعمالِها في صحّة علومِها ، وصحّةُ علومِها في أنْ يكونَ رجالُها أمناءَ فيما يَرْوون أو يَصِفُون ، فمن تَحَدَّثَ في العلمِ بغيرِ أمانةٍ ؛ فقد مَسَّ العلمَ بقُرْحةٍ ، وَوَضَعَ في سبيلِ فلاحِ الأمة حَجَرَ عَثْرَة .

لا تَخْلو الطوائفُ المنتميةُ إلى العلومِ من أشخاصٍ لا يَطْلُبون العلمَ ليتحلَّوا بأسنىٰ فضيلةٍ ، أو لِيَنْفَعُوا الناسَ بما عَرفوا من حكمةٍ ، وأمثالُ هؤلاء لا تجدُ الأمانَةَ في نفوسِهم مُسْتَقَراً ، فلا يتحرّجون أنْ يَرْوُوا ما لم يسمعوا ، أو يَصِفُوا ما لم يعلموا ، وهذا ما كان يَدْعو جهابذةَ أهلِ العلمِ إلى نَقْد الرجال ، وتَمْييز مَنْ يُسْرِفُ في القولِ ممّن يصوغُه على قَدْرِ ما يعلمُ ، حتى أصبح طُلَّابُ العلمِ على بصيرةٍ من قيمةِ ما يقرؤونه ، فلا تخفىٰ عليهم منزلتُه ، من القَطْعِ بصدقهِ أو كذبِه ، أو رُجحانِ أحدِهما على الآخرِ ، أو

---

(1) «فتاوى ابن تيمية» (٤ / ٣٨) .

(2) «رسائل الإصلاح» (١ / ١٣) .

احتمالِهما على سواء» اهـ.

٣٣ ـ الصِّدْقُ(١):

صدقُ اللهجةِ: عنوانُ الوَقَارِ، وشرفُ النفس، ونقاءُ السريرةِ، وسُمُوُّ الهمّـةِ، ورُجحانُ العقلِ، ورسولُ المودّةِ مع الخلقِ، وسعادةُ الجماعةِ، وصيانةُ الديانةِ، ولهذا كان فَرْضَ عينٍ، فيا خَيْبَةَ من فرّطَ فيه، ومن فعل فقد مسَّ نفسَه وعلمَه بأذىً.

قال الأوزاعيُّ رحمه الله تعالى:

«تعلَّم الصِّدْقَ قبل أن تتعلَّم العلم».

وقال وكيعٌ رحمه الله تعالى:

«هذه الصَّنْعَةُ لا يرتفعُ فيها إلا صادقٌ»(٢).

فتعلَّم ـ رحمك اللهُ ـ الصِّدْقَ قبل أن تتعلَّم العلم، والصِّدْقُ: إلقاءُ الكلام على وَجْهٍ مطابقٍ للواقعِ والاعتقادِ، فالصِّدْقُ من طريقٍ واحدٍ، أمّا نقيضهُ الكذبُ فَضُروبٌ وألوانٌ ومسالكُ وأودية، يجمعُها ثلاثةٌ(٣):

١ ـ كَذِبُ المتملِّق: وهو ما يخالفُ الواقعَ والاعتقادَ، كمن يتملَّق لمن يعرفُه فاسقاً أو مبتدعاً فَيَصِفُه بالاستقامةِ.

٢ ـ وكَذِبُ المُنافقِ: وهو ما يخالفُ الاعتقادَ ويُطابق الواقعَ كالمُنافق

---

(١) «فتاوى شيخ الإسلام» (٢٠ / ٧٤ ـ ٨٥).

(٢) «الجامع» (١ / ٣٠٤، ٢ / ٧) للخطيب البغدادي.

(٣) «رسائل الإصلاح» (١ / ٩٥ ـ ١٠٥) مهم.

ينطقُ بما يقولُه أهلُ السُّنَّةِ والهدايةِ.

٣ ـ وكَذِبُ الغبيِّ: بما يُخالِفُ الواقعَ ويطابقُ الاعتقادَ، كمن يعتقدُ صلاحَ صوفيٍّ مبتدع فيصفُه بالولاية.

فالْزَمِ الجادَّةَ (الصِّدْقَ)، فلا تضغطْ على عَكَدِ اللسانِ، ولا تضُمَّ شَفَتيك، ولا تفتح فاكَ ناطقاً إلّا على حروفٍ تُعَبِّرُ عن إحساسِك الصادقِ في الباطنِ؛ كالحُبِّ والبُغْضِ، أو إحساسِك في الظاهرِ؛ كالّذي تُدْرِكُه الحواسُّ الخمسُ: السمعُ، البصرُ، الشمُّ، الذوقُ، اللمسُ.

فالصادقُ لا يقولُ: «أحببتُك» وهو مُبْغِضٌ، ولا يقولُ: «سمعتُ» وهو لم يسمع، وهكذا...

واحْذر أنْ تحومَ حولَك الظنونُ، فتخونَك العزيمةُ في صدقِ اللهجةِ، فَتُسَجَّل في قائمة الكذابين.

وطريقُ الضَّمانة لهذا ـ إذا نازَعَتْك نفسُك بكلام غيرِ صادقٍ فيه ـ: أن تَقْهَرَها بذكرِ منزلةِ الصدق وشَرَفِهِ، ورذيلةِ الكذب وَدَرَكِهِ، وأنّ الكاذبَ عن قريبٍ ينكشفُ.

واستعِنْ باللهِ ولا تعجزنّ.

ولا تفتح لنفسِك سابلةَ المعاريضِ في غيرِ ما حَصَرَهُ الشرعُ.

فيا طالبَ العلم! احْـذَرْ أنْ تَمْـرُقَ من الصـدقِ إلى المعـاريضِ فالكـذبِ، وأسوأُ مرامي هذا المروقِ (الكذبُ في العلمِ)؛ لِدَاءِ مُنافسةِ الأقرانِ، وطَيَرانِ السُّمعةِ في الآفاق.

ومن تطلَّع إلى سُمعةٍ فوقَ منـزلتهِ؛ فَلْيَعْلم أنَّ في المرصاد رجالاً يحملونَ بصائرَ نافذةً، وأقلاماً ناقدةً، فَيَزِنُون السُّمْعةَ بالأثرِ، فتتمُّ تعريتُك عن ثلاثةِ معانٍ:

١ ـ فَقْدُ الثقةِ من القلُوبِ.

٢ ـ ذهابُ عِلْمِك وانْحِسَارُ القَبولِ.

٣ ـ أنْ لا تُصَدَّق ولو صدقتَ.

وبالْجُملة؛ فمن يحترفُ زُخْرُفَ القَوْلِ؛ فهو أخو الساحرِ، ولا يُفلح الساحرُ حيثُ أتى[1]. والله أعلم.

٣٤ ـ جُنَّةُ طالبِ العلمِ:

جُنَّةُ العالم (لا أُدْري)، وَيَهْتِكُ حجابَه الاستنكافُ منها، وقولُه: يُقال...

وعليه؛ فإنْ كان نصفُ العلم (لا أدري)؛ فنصفُ الجهل (يُقال) و(أظنُّ)[2].

٣٥ ـ المُحافَظَةُ على رأسِ مالك (ساعاتِ عُمُرِك):

الوَقْتَ الوَقْتَ للتَّحْصيل، فكن حِلْفَ عَمَلٍ لا حِلْفَ بطالةٍ وبَطَرٍ، وحِلْسَ مَعْمَلٍ لا حِلْس تَلَهٍّ وسَمَرٍ، فالحفظُ على الوقتِ؛ بالجدِّ،

(١) المرجع قبله.

(٢) «التعالم» (ص٣٦).

والاجتهـادِ، ومُـلازمةِ الطلبِ، ومُثافَنَةِ الأشياخ، والاشتغالِ بالعلم قراءةً وإقراءً ومُطالعةً وتدبُّراً وحِفظاً وبَحْثاً، لا سيّما في أوقات شَرْخِ الشباب، ومُقْتَبَـلِ العُمُـرِ، ومعدنِ العافية، فاغتنم هذه الفُرصةَ الغاليةَ؛ لتنالَ رُتَبَ العلمِ العاليةَ؛ فإنها «وقتُ جمع القلبِ، واجتماع الفِكْر»؛ لقلّةِ الشواغلِ والصوارفِ عن التزاماتِ الحياة والتَّرَؤُّسِ، ولخفّةِ الظَّهْرِ والعيالِ:

ما لِلْمُـعيلِ ولِـلْمَعَـوَالـي إنَّـمـا
يَسْـعـىٰ إلـيهـنَّ الْـفَـرِيدُ الْفَـارِدُ

وإيّاك وتأميرَ التسويفِ على نَفْسِك؛ فلا تُسَوِّف لنفسِك بعد الفراغ من كذا، وبعد (التقاعُدِ) من العَمَل هذا. . . وهكذا، بل البِدَارَ قبل أن يَصْدُقَ عليك قولُ أبي الطَّحّان القَيْني:

حَنَتْـنـيَ حَانِـيَاتُ الـدَّهْـرِ حتّىٰ
كأنّـي خاتِـلُ أَدْنـو لِصَـيْدِ
قَصِيرُ الـخَـطْوِ يَحْسِبُ مَنْ رآني
ولَـسْـتُ مُقَـيَّداً أنّـي بِقَـيْدِ

وقال أُسامة بن مُنْقِذ:

مَعَ الثّمـانينَ عاثَ الضَّعْفُ في جَسَـدي
وَسـاءنـي ضَعْفُ رِجْلي واضْـطرابُ يَدِي
إذا كَتَـبْـتُ فَخَـطّي خَطُّ مُضْـطَرِبٍ
كَخَطِّ مُرْتَـعِشِ الـكَـفَّيْنِ مُرْتَـعِـدِ

فَاعْـجَبْ لِضَعْفِ يَدي عن حَمْلِهـا قَلَمـاً
مِنْ بَعْـدِ حَمْــلِ الْقَنَـا في لَبَّـةِ الأَسَـدِ
فَقُــلْ لِمَــنْ يَتَــمَـنَّـىٰ طُولَ مُدَّتِـهِ
هٰذي عواقِــبُ طُولِ الـعُــمْــرِ والْـمُـدَدِ

فإنْ أعْمَلْتَ البِدَارَ؛ فهذا شاهدٌ منك على أنّك تحمِلُ «كِبَرَ الهمّة في العِلْمِ».

٣٦ - إجْمامُ النَّفْس:

خُذْ من وقتِك سُوَيعات تُجِمُّ بها نفسَك في رياضِ العلمِ من كُتُب المحاضراتِ (الثقافة العامّة)؛ فإنّ القُلوبَ يُرَوَّحُ عنها ساعةً فساعةً.

وفي المأثور عن أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «أجِمُّوا هذه القلوب، وابْتَغُوا لها طرائفَ الحكمةِ، فإنها تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبدانُ»[١].

وقال شيخُ الإسلام ابن تيّمية رحمه الله تعالى في حكمةِ النهي عن التطوُّع في مُطْلَقِ الأوقاتِ[٢]:

«بَلْ في النَّهْي عنه بعضَ الأوقاتِ مصالحُ أُخَرُ من إجمامِ النُّفوسِ بعضَ الأوقاتِ؛ من ثِقَلِ العبادةِ؛ كما يُجَمُّ بالنومِ وغيرِه، ولهذا قال مُعاذ: إني لأحتسِبُ نَوْمَتي، كما أحتسِبُ قَوْمَتي...».

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله».

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٣ / ١٨٧).

وقال[1]: «بل قد قِيلَ: إنّ مِن جُملة حكمةِ النَّهي عن التطوُّعِ المُطْلَقِ في بعض الأوقاتِ: إجمامَ النُّفوسِ في وقت النهيِ لِتنشَطَ للصلاةِ؛ فإنّها تنبسِطُ إلى ما كانت ممنوعةً منه، وتنشطُ للصلاةِ بعد الراحةِ. واللهُ أعلم» اهـ.

ولهذا كانت العُطَلُ الأسبوعيةُ للطُّلّابِ منتشرةً منذ أَمَدٍ بعيدٍ، وكان الأغلبُ فيها، يومَ الجُمُعةِ، وعصرَ الخميسِ، وعند بعضِهم يومُ الثلاثاء، ويومُ الاثنين، وفي عيدي الفِطْر والأضحى من يومٍ إلى ثلاثةِ أيام وهكذا...

ونجدُ ذلك في كُتُب آداب التعليمِ، وفي السِّيَر، ومنه على سبيل المثالِ: «آداب المُعَلِّمين» لِسُحنون (ص١٠٤)، و«الرسالة المفصَّلة» للقابِسي (ص١٣٥ - ١٣٧)، و«الشقائق النُّعمانية» (ص٢٠)، وعنه في: «أبجد العلوم» (١/ ١٩٥ - ١٩٦)، وكتاب «أليس الصبحُ بقريب» للطاهر ابن عاشور، و«فتاوى رشيد رضا» (١٢١٢)، و«معجم البلدان» (٣/ ١٠٢). و«فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميّة» (٢٥/ ٣١٨ - ٣٢٠، ٣٢٩).

٣٧ - قِراءةُ التَّصْحيحِ والضَّبْطِ:

احْرِصْ على قراءةِ التصحيحِ والضبطِ على شيخٍ مُتْقِنٍ؛ لتأمنَ من التحريفِ والتصحيفِ والغَلَطِ والوَهَمِ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٣ / ٢١٧).

وإذا استقرأتَ تراجمَ العلماءِ ـ وبخاصّةٍ الحُفَّاظَ منهم ـ تجدْ عدداً غيرَ قليلٍ ممّن جَرَدَ المُطَوَّلاتِ في مجالسَ أو أيامٍ قراءةَ ضبطٍ على شيخٍ متقنٍ.

فهذا الحافظُ ابنُ حَجَرٍ رحمه الله تعالى قرأ «صحيحَ البُخاريّ» في عشـرة مجالس، كلُّ مجلسٍ عشرُ ساعات، و«صحيح مسلم» في أربعةِ مجالسَ في نحو يومينِ وشَيْءٍ من بُكرةِ النهار إلى الظهر، وانتهى ذلك في يَوْمِ عَرَفة، وكان يومَ الجمعة سنة ٨١٣هـ، وقرأ «سُنن ابن ماجه» في أربعة مجالسَ، و«معجم الطَّبراني الصغير» في مجلس واحد، بين صلاتي الظهر والعصر.

وشيخهُ الفَيْروزَآبادي قرأ في دمشَق «صحيح مسلم» على شيخه ابن جَهْبَل قراءةَ ضَبْطٍ في ثلاثةِ أيام.

وللخطيبِ البَغْدادي والمُؤْتَمن السَّاجي، وابن الأَبّار وغيرهم في ذلك عجائبُ وغرائبُ يطولُ ذكرها، وانْظُرْها في: «السِّيَر» للذَّهبي (١٨/ ٢٧٧ و ٢٧٩، ١٩/ ٣١٠، ٢١/ ٢٥٣)، و«طَبَقـات الشـافعية» للسُّبْكي (٤/ ٣٠)، و«الجواهر والدُّرر» للسَّخَاوي (١/ ١٠٣ ـ ١٠٥)، و«فتح المُغيث» (٢/ ٤٦)، و«شَذَرات الذَّهَب» (٨/ ١٢١ و ٢٠٦)، و«خُلاصة الأَثَر» (١/ ٧٢ ـ ٧٣)، و«فِهْرِس الفهارس» للكَتّاني، و«تاج العروس» (١/ ٤٥ ـ ٤٦).

فلا تَنْسَ حَظَّك من هذا.

٣٨ ـ جَرْدُ المُطَوَّلات:

الجَـرْدُ للمُـطَوَّلات من أهمِّ المُهِمَّات؛ لِتَعدُّدِ المعارفِ، وتوسيعِ المـدارك، واستخـراجِ مكنـونها من الفوائدِ والْفَرائدِ، والخِبْرَةِ في مظانِّ الأبحاثِ والمسائلِ، ومعرفةِ طرائقِ المُصَنِّفينَ في تآليفِهم واصطلاحِهم فيها.

وقد كان السَّالِفون يَكْتُبون عند وقوفِهم: «بَلَغَ»، حتى لا يفوتَه شيءٌ عند المُعاوَدَةِ، لا سيَّما مع طُولِ الزَّمَنِ.

٣٩ ـ حُسْنُ السُّؤال:

الْتَزِمْ أَدَبَ المُباحَثةِ من حُسْنِ السُّؤالِ، فالاسْتِمَاعِ، فصحَّةِ الفهمِ للجـوابِ، وإيَّاكَ إذا حَصَلَ الجوابُ أن تقولَ: لكنَّ الشيخَ فلانٌ قال لي كذا، أو قال كذا؛ فإنَّ هذا وَهْنٌ في الأَدَبِ، وضَرْبٌ لأهلِ العلمِ بعضِهم ببعضٍ، فاحْذَر هذا.

وإنْ كُنتَ لا بُدَّ فاعلًا؛ فكُن واضِحاً في السؤال، وقل: ما رأيُك في الفتوى بكذا، ولا تُسَمِّ أحداً.

قال ابنُ القيِّمِ رحمه الله تعالى[1]:

«وقيل: إذا جَلَسْتَ إلى عالمٍ؛ فَسَلْ تَفَقُّهاً لا تَعَنُّتاً» اهـ.

وقال أيضاً:

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص١٨٤).

«وللعلمِ ستُّ مراتبَ:

أولُها: حُسْنُ السؤالِ.

الثانيةُ: حُسْنُ الإنصاتِ والاستماعِ.

الثالثةُ: حُسْنُ الفهمِ.

الرابعةُ: الحِفْظُ.

الخامسة: التعليمُ.

السادسة: وهي ثمرتُه؛ العمل به ومراعاة حدوده» اهـ.

ثم أخذ في بيانها ببحث مهم.

٤٠ ـ المناظَرةُ بلا مُماراةٍ[١]:

إيَّاكَ والمماراةَ؛ فإنها نِقْمَةٌ، أمَّا المُناظرةُ في الحَقِّ؛ فإنها نِعْمَةٌ، إذ المناظرةُ الحقَّة فيها إظهار الحقِّ على الباطلِ، والراجحِ على المرجوحِ، فهي مَبْنِيَّةٌ على المُناصَحةِ، والحِلْمِ، ونَشْرِ العِلْم، أمّا المماراةُ في المحاوراتِ والمناظراتِ؛ فإنّها تَحَجُّجٌ ورياءٌ، ولَغَطٌ وكِبرياءٌ، ومُغالَبةٌ ومِراءٌ، واخْتِيالٌ وشَحْناءٌ، ومُجاراةٌ للسُّفهاءِ، فاحْذَرْها واحْذَرْ فاعِلَها؛ تَسْلَم من المآثِمِ وهَتْكِ المحارمِ، وأَعْرِضْ تَسْلَم وتكْبُت المأثَم والمَغْرَمَ.

٤١ ـ مُذاكَرَةُ العِلْمِ:

تمتَّع مع البُصَراء بالمُذاكَرةِ والمُطارَحةِ؛ فإنّها في مواطنَ تفوقُ

---

(١) وانظر: «فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٢٤ / ١٧٢ ـ ١٧٤).

المُطالَعةَ، وتشحَذُ الذِّهْنَ، وتُقوِّي الذاكرةَ؛ مُلتزماً الإنصافَ والمُلاطفَةَ، مُبْتَعِداً عن الحَيْفِ والشَّغْبِ والمجازفةِ.

وكُنْ على حَذَرٍ؛ فإنّها تكشفُ عُوارَ مَنْ لا يَصْدُقُ.

فإن كانت مع قاصرٍ في العلم، باردِ الذهنِ؛ فهي داءٌ ومُنافرةٌ، وأمّا مذاكرتُك مع نفسِك في تقليبِك لمسائل العلمِ؛ فهذا ما لا يسوغُ أن تنفكَّ عنه.

وقد قيلَ: إحياءُ العلمِ مُذاكرتُهُ.

٤٢ ـ طالبُ العِلم يعيشُ بين الكِتَابِ والسُّنَّة وعلومِها:

فهما له كالجناحَيْنِ للطائرِ، فاحْذَر أنْ تكونَ مَهيضَ الجناحِ.

٤٣ ـ استكمال أدوات كل فن:

لن تكــونَ طالبَ علمٍ مُتْقِنـاً مُتَفَنِّنـاً ـ حتى يَلِجَ الجَمَـلُ في سَمِّ الخِيَاطِ ـ ما لم تستكمِلْ أدواتِ ذلك الفَنِّ، ففي الفقهِ بين الفقهِ وأُصولِه، وفي الحديثِ بين عِلمَي الروايةِ والدرايةِ... وهكذا، وإلاّ فلا تَتَعَنَّ.

قال اللهُ تعالى

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِه﴾.

فَيُستفاد منها أنَّ الطالبَ لا يتركُ عِلماً حتى يُتْقِنَه[1].

□□□□□

---

(١) «شرح الإحياء» (١ / ٣٣٤).

الفصل السادس

التَّحَلِّي بالْعَمَل

٤٤ ـ مِنْ علاماتِ العلمِ النَّافعِ :

تساءَلْ مَعَ نَفْسِك عن حَظِّكَ من علاماتِ العلمِ النافعِ ، وهي :

١ ـ العملُ به .

٢ ـ كراهيةُ التزكيةِ والمدحِ والتكبُّر على الخَلْقِ .

٣ ـ تكاثُر تواضُعِك كلّما ازددتَ علماً .

٤ ـ الهَرَبُ من حُبِّ الترؤُّس والشهرةِ والدُّنيا .

٥ ـ هَجْرُ دعوىٰ العِلْمِ .

٦ ـ إساءةُ الظَّنِّ بالنفسِ ، وإحسانُه بالناسِ ؛ تنزُّهاً عن الوقوعِ بهم .

وقد كان عبدُالله بن المُبارَك إذا ذُكر أخلاقُ مَنْ سَلَف يُنْشِد :

لا تَعْـرِضَنَّ بِذِكْـرِنـا مَعَ ذِكْـرِهِم
لَيسَ الـصَّحيحُ إِذَا مَشَىٰ كالْمُقْعَـدِ

٤٥ ـ زكاة العلم :

أدِّ (زكاةَ العلم): صادعاً بالحقِّ، أمّاراً بالمعروفِ، نَهّاءً عن المُنْكَرِ، مُوازناً بين المصالحِ والمضارِّ، ناشِراً للعلمِ، وحُبِّ النفع، وبَذْلِ الجاه، والشفاعةِ الحَسَنة للمسلمين في نوائبِ الحقِّ والمعروفِ.

وعن أبي هُريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«إذا مات الإنسانُ انْقَطَعَ عملُه؛ إلاّ من ثلاثٍ: صَدَقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنْتَفَعُ به، أو وَلَدٍ صالحٍ يدعو له».

رواه مسلمٌ وغيره.

قال بعضُ أهل العِلْمِ(١): هذه الثلاثُ لا تجتمعُ إلاّ لِلْعالمِ الباذلِ لعلمِه، فبذلُه صَدَقَةٌ، يُنْتَفَعُ بها، والمُتَلَقِّي لها ابنٌ للعالمِ في تعلُّمهِ عليه.

فاحْرِصْ على هذه الحِلْيةِ؛ فهي رأسُ ثمرةِ علمِك.

وَلِشَرَفِ العلمِ؛ فإنّه يزيدُ بكثرةِ الإنفاقِ، ويَنْقُصُ مع الإشفاقِ، وآفتُه الكِتْمانُ.

ولا تَحْمِلْك دعوى فسادِ الزمانِ، وغلَبة الفُسّاق، وضَعْف إفادةِ النَّصيحةِ عن واجبِ الأداء والبلاغِ، فإنْ فَعَلْتَ؛ فهي فِعْلَةٌ يسوقُ عليها الفُسّاقُ الذهبَ الأحمرَ، لِيَتِمَّ لهم الخروجُ على الفضيلةِ، ورفعُ لواءِ الرذيلةِ.

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم».

٤٦ ـ عِزَّةُ العُلَماء:

التَّحلِّي بـ (عـزّة العلماء): صيانةُ العلمِ وتعظيمهُ، وحمايةُ جَنَاب عِزِّه وشَـرَفِهِ، وَبِقَدْرِ ما تبذُلُه في هذا يكونُ الكَسْبُ منه ومن العَمَلِ به، وَبِقَدْرِ ما تهدرُهُ يكونُ الفَوْتُ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ العزيزِ الحكيمِ.

وعليهِ؛ فاحْذَر أن يَتَمَنْدَلَ بك الكُبَراءُ، أو يَمْتَطِيَكَ السُّفهاء، فَتُلاين في فتوى، أو قضاءٍ، أو بحثٍ، أو خطابٍ...

ولا تَسْعَ به إلى أهلِ الدُّنيا، ولا تَقِفْ به على أعتابِهم، ولا تَبْذُلْه إلى غيرِ أهلِه وإنْ عَظُم قدرُه.

وَمتِّع بَصرَكَ وبصيرتَك بقراءةِ التراجِمِ والسِّيَر لأئمَّةٍ مَضَوْا، تَرَ فيها بَذْلَ النفسِ في سبيلِ هذه الحمايةِ، لا سيّما مَن جَمَع مُثُلاً في هذا؛ مِثْل كتاب «من أخلاق العلماء» لمحمد سُليمان رحمه الله تعالى[1]، وكتاب «الإسـلام بين العُلَمـاء والحُكَّـام» لعبدالعزيز البَدْري رحمه الله تعالى، وكتاب «مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لفاروق السَّامَرَّائي[2].

وأرجو أن ترى أضعافَ ما ذكروه في كتاب «عِزَّةَ العُلماءِ» يسّر اللهُ إتمامَه وطَبْعَه.

وقـد كان العُلماء يُلَقِّنُون طُلَّابَهم حِفْظَ قصيدةِ الْجُرجاني عليّ بن

---

(١) مطبوع مراراً.

(٢) طبع بجدة عام (١٤٠٧هـ)، نشر دار الوفاء بجدة.

عبدالعزيز (م سنة ٣٩٢هـ) رحمه اللهُ تعالى كما نَجِدُها عند عَدَدٍ من مُترجمية، ومطلعُها:

يَقُولُون لي فيك انْقِبَاضٌ وإنّما
رَأَوْا رَجُلاً عن مَوْضِعِ الذُّلِّ أحْجَما
أرى النَّاسَ مَنْ داناهمُ هانَ عِنْدَهُم
وَمَن أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِما
وَلَوْ أنّ أَهْلَ العِلْمِ صانُوه صانَهم
ولو عَظَّموه في النُّفوسِ لَعَظُما

(لَعَظُما)؛ بفتح الظاء المعجمة المُشالَة.

٤٧ ـ صِيَانَةُ العلم :

إنْ بَلَغْتَ مَنْصِباً؛ فتذكّر أنّ حَبْلَ الوصلِ إليه طلبُك للعلم، فَبِفَضْلِ الله ثُمَّ بسببِ علمِك بَلَغْتَ ما بَلَغْتَ من ولايةٍ في التعليمِ، أو الفُتيا، أو القضاءِ... وهكذا، فأَعْطِ العِلْمَ قَدْرَه وحَظَّه من العَمَل به وإنزالَه منزلَته.

واحْذَر مسلكَ من لا يَرْجون للهِ وَقَاراً، الّذين يَجْعلون الأساسَ (حِفْظَ المنصبِ)، فَيَطْوون ألسنتَهم عن قولِ الحَقِّ، ويحملُهم حُبُّ الولايةِ على المجاراةِ.

فالْزَم ـ رحمكَ اللهُ ـ المُحافَظةَ على قِيمَتِكَ بحفظِ دينِك، وعلمِك، وشَرَفِ نفسِك، بحكمةٍ ودرايةٍ وحُسْنِ سياسةٍ: «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْك» «احْفَظِ اللهَ في الرَّخاء يَحْفَظْك في الشِّدَّة...».

وإنْ أُصْبَحْتَ عاطلاً من قلادةِ الولايةِ ـ وهذا سبيلُكَ ولو بَعْدَ حينٍ ـ فلا بَأْسَ؛ فإنَّهُ عَزْلُ محمدةٍ لا عَزْلُ مذمّةٍ ومنقصةٍ.

ومن العجيبِ أنَّ بعضَ من حُرِمَ قَصْداً كبيراً من التَّوفيقِ لا يكونُ عنده الالتزامُ والإنابةُ والرجوعُ إلى الله إلّا بعد (التقاعُد)، فهذا وإنْ كانت توبتُه شَرعيّة؛ لَكنَّ دينَه ودينَ العجائزِ سواءٌ، إذ لا يتعدّى نفعُه، أما وقتَ ولايتِهِ، حالَ الحاجةِ إلى تعدِّي نفعِه؛ فتجدُه من أعظم الناس فُجوراً وضَرَراً، أو باردَ القلبِ أخرسَ اللِّسانِ عن الحقِّ.

فنعوذُ باللهِ من الخُذلانِ.

٤٨ ـ المُدارَاة لا المُداهَنة:

المُداهَنة خُلُقٌ مُنْحَطٌّ، أمّا المُداراةُ؛ فلا، لكنْ لا تَخْلِط بينَهما، فتحمِلَك المداهنةُ إلى حَضَارِ النفاقِ مجاهرةً، والمُداهَنةُ هي التي تَمسُّ دينَك[١].

٤٩ ـ الغَرامُ بالكُتُب[٢]:

شَرَفُ العلمِ معلومٌ؛ لِعُمومِ نفعِهِ، وشدّةُ الحاجةِ إليه كحاجةِ البَدَنِ إلى الأنفاسِ، وظهورُ النقصِ بقَدْرِ نقصِه، وحصولُ اللَّذَّةِ والسُّرورِ بقدرِ تحصيلِه؛ ولهـذا اشتدَّ غَرَامُ الطُّلّابِ بالطَّلَبِ، والغرامُ بجمعِ الكُتُبِ مع

---

(١) انظر: «الغرباء» للآجُرّي (ص٧٩ ـ ٨٠) مهم، و«روضة العقلاء» (ص٧٠) لابن حِبّان.

(٢) انـظر: «روضـة المحبين» (ص٦٨ ـ ٦٩) مهم، و«مفتـاح دار السعـادة» (ص٨١)؛ ففيهما أخبارٌ ظريفةٌ وحكاياتٌ طريفةٌ.

الانتقاءِ، ولهم أخبارٌ في هذا تطولُ، وفيه مُقَيَّداتٌ في «خَبَر الكتاب» يسّر اللهُ إتمامَه وطبعَه.

وعليه؛ فَأَحْرِزِ الأصولَ من الكُتُبِ، واعْلَم أنّه لا يُغْني منها كتابٌ عن كتابٍ، ولا تَحْشُرْ مكتبتك وتُشَوِّشْ على فِكْرِك بالكُتُب الغُثائية، لا سيّما كُتُبَ المبتدعةِ؛ فإنّها سُمٌّ ناقعٌ.

٥٠ ـ قِوَامُ مكتبتِك:

عليك بالكُتُب المنسوجةِ على طريقةِ الاستدلالِ، والتفقُّهِ في عِلَلِ الأحكـام، والغَوْصِ على أسرار المسائلِ؛ ومِن أَجَلِّهَا كُتُبُ الشيخين: شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى، وتلميذِه ابن قيِّم الجَوْزِيَّة رحمه الله تعالى.

وعلى الجادّة في ذلك مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ كُتُبُ:

١ ـ الحافظُ ابن عبدالبرِّ (م سنة ٤٦٣هـ) رحمه الله تعالى، وأجلُّ كتبهِ «التَّمهيد».

٢ ـ الحافظُ ابنُ قُدامةَ (م سنة ٦٢٠هـ) رحمه الله تعالى، وأرأسُ كتبهِ «المُغْني».

٣ ـ الحافظُ ابنُ الذَّهَبي (م سنة ٧٤٨هـ) رحمه الله تعالى.

٤ ـ الحافظُ ابنُ كثيرٍ (م سنة ٧٧٤هـ) رحمه الله تعالى.

٥ ـ الحافظ ابن رَجَب (م سنة ٧٩٥هـ) رحمه الله تعالى.

٦ ـ الحافظُ ابن حَجَر (م سنة ٨٥٢هـ) رحمه الله تعالى.

٧ ـ الحافظ الشَّوْكاني (م سنة ١٢٥٠هـ) رحمه الله تعالى.

٨ ـ الإمامُ محمد بن عبدالوهَّاب (م سنة ١٢٠٦هـ) رحمه الله تعالى.

٩ ـ كتبُ عُلماءِ الدعوة، ومن أجمعها «الدُّرَر السَّنِيَّة».

١٠ ـ العـلاّمة الصَّنْعاني (م سنة ١١٨٢هـ) رحمه الله تعالى، لا سيّما كتابه النافع «سُبُل السلام».

١١ ـ العلاّمة صِدِّيق حسن خانَ القَنَّوجْي (م سنة ١٣٠٧هـ) رحمه اللهُ تعالى.

١٢ ـ العلاّمة محمد الأَمين الشّنقيطي (م سنة ١٣٩٣هـ) رحمه الله تعالى لا سيما كتابه: «أَضْواء الْبَيَان».

٥١ ـ التَّعامُلُ مع الكتابِ:

لا تستفِد من كتابٍ حتى تعرفَ اصطلاحَ مُؤَلِّفهِ فيه، وكثيراً ما تكونُ المُقَدِّمَةُ كاشفةً عن ذلك، فابْدَأْ من الكتابِ بقراءةِ مُقَدِّمتهِ.

٥٢ ـ وَمِنْهُ:

إذا حُزْتَ كتاباً؛ فلا تُدْخِلْه في مكتبتِك إلاّ بعدَ أن تَمُرَّ عليه جَرْداً، أو قراءةً لِمُقَدِّمَتِهِ، وفهرسِهِ، ومواضعَ منه، أمّا إنْ جَعَلْتَه مع فنِّه في المكتبةِ؛ فَرُبَّما مَرَّ زمانٌ وفاتَ العُمُرُ دونَ النَّظَرِ فيه، وهذا مُجَرَّبٌ، واللهُ المُوَفِّقُ.

٥٣ ـ إعجامُ الكتابةِ:

إذا كَتَبْتَ فأعْجِمِ الكتابةَ بإزالةِ عُجْمَتِها، وذلك بأُمورٍ:

١ ـ وُضوحُ الخَطِّ.

٢ ـ رسمُه على ضوءِ قواعدِ الرسمِ (الإملاء).

وفي هذا مؤلَّفاتٌ كثيرةٌ من أهمِّها:

«كتابُ الإملاء» لحُسين والي[١].

«قواعد الإملاء» لعبد السَّلام محمد هارون[٢].

«المُفْردَ العَلَم» للهاشِمي، رحمهم الله تعالى[٣].

٣ ـ النَّقْطُ لِلْمُعْجَم والإهمالُ لِلْمُهْمَل[٤].

٤ ـ الشَّكل لما يُشْكِل.

٥ ـ تثبيتُ علاماتِ الترقيمِ في غير آيةٍ أو حديثٍ[٥].

□□□□□

---

(١) طبع ثم صور عام (١٤٠٥هـ)، بيروت / دار القلم.

(٢) طبع الخانجي بمصر عام (١٣٩٩هـ)، الطبعة الرابعة.

(٣) الطبعة الثانية والعشرون، المكتبة البخارية الكبرى بمصر.

(٤) لأنَّ التَّرك يؤدي إلى الاشتباه.

(٥) «الترقيم وعلاماته»، أحمد زكي باشا، طبع عام ١٣٣٠هـ.

الفصل السابع

الْمَحاذيرُ

٥٤ ـ حِلْمُ الْيَقَظَة :

إيَّاكَ و (حِلْمَ الْيَقَظَة)، ومنه بأنْ تَدَّعي العلمَ لما لم تَعْلَم، أو إتقانَ ما لم تُتْقِن، فإنْ فَعَلْتَ؛ فهو حجابٌ كثيفٌ عن العلمِ.

٥٥ ـ احْذَرْ أنْ تكونَ «أبا شبر»[١] :

فقد قيلَ: العِلْمُ ثلاثةُ أشبارٍ، مَنْ دَخَلَ في الشِّبْرِ الأولِ؛ تكبَّر، ومن دَخَلَ في الشِّبْرِ الثاني؛ تواضَعَ، ومَنْ دخل في الشِّبْرِ الثالث؛ علم أنه ما يَعْلَمُ.

٥٦ ـ التَّصَدُّر قبلَ التأهُّلِ :

احذر التصدر قبل التأهل؛ فهو آفة في العلم والعمل.

وقد قيلَ: مَن تصدَّر قبلَ أوانِه؛ فقد تصدَّى لِهَوَانِهِ.

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٦٥).

٥٧ ـ التّشَبُّع بالعِلْم :

احْذَر ما يَتَسلّى به المُفْلِسون من العِلْم، يراجعُ مسألةً أو مسألتين، فإذا كان في مجلسٍ فيه مَنْ يُشارُ إليه؛ أثارَ البَحْثَ فيهما؛ ليُظْهِرَ عِلْمَه! وكم في هذا من سوأةٍ، أقلُّها أنْ يعلَم أنّ الناسَ يعلمون حقيقتَه.

وقد بَيّنْتُ هذه مع أخواتٍ لها في كتاب «التعالُم»، والحمدُ لله ربِّ العالَمين.

٥٨ ـ تَحْبيرُ الكَاغَدِ:

كما يكونُ الْحَذَرُ من التأليفِ الخالي من الإبداعِ في مقاصدِ التأليفِ الثمانيةِ[١]، والذي نهايتُه «تحبيرُ الكاغَدِ»[٢]، فالْحَذَرَ من الاشتغالِ بالتصنيفِ قبل استكمالِ أدواتِه، واكتمالِ أهليّتك، والنُّضوجِ على يَدِ أشياخِك؛ فإنّك تُسَجِّلُ به عاراً، وتُبدي به شَنَاراً.

أمّا الاشتغالُ بالتأليفِ النافعِ لمن قامت أهليّتُه، واستكمل أدواتِه، وتعدَّدَتْ معارفُه، وتمرَّس به بحثاً، ومُراجعةً، ومُطالعةً، وجَرْداً لمطوَّلاتِه، وحِفْظاً لمختصراتِه، واسْتِذْكاراً لمسائلِه؛ فهو من أفضلِ ما يقومُ به النُّبلاءُ من الفُضَلاءِ.

ولا تَنْسَ قولَ الخطيب:

---

(١) أول من ذكرها ابن حزم في : «نَقْط العروس»، وانظر تسلسل العلماء لذكرها في : «إضاءة الراموس» (٢ / ٢٨٨) مهم.

(٢) هو القِرْطاسُ: فارسيٌّ معرَّب.

«مَنْ صَنَّف؛ فقد جعل عَقْلَه على طَبَق يَعْرِضُه على الناسِ».

٥٩ ـ مَوْقِفُك من وَهَم مَنْ سَبَقَكَ:

إذا ظَفِرْتَ بِوَهَمٍ لعالمٍ؛ فلا تَفْرَح به لِلْحَطِّ منه، ولكنِ افْرَح به لتصحيح المسألةِ فقط؛ فإنّ المُنْصِفَ يكادُ يجزمُ بأنّه ما من إمامٍ إلاّ وله أغلاطٌ وأوهامٌ، لا سيّما المُكْثِرين منهم.

وما يُشَغِّبُ بهذا ويَفْرَحُ به للتنقُّص؛ إلاّ متعالمٌ «يريدُ أن يُطِبَّ زُكَاماً فَيُحْدِث به جُذَاماً»(١).

نَعَم؛ يُنَبِّه على خطأ أو وَهَم وَقَع لإمام غُمِرَ في بَحْرِ عِلْمِهِ وفضلِه، لكنْ لا يُثير الرَّهَجَ عليه بالتنقُّصِ منه والْحَطِّ عليه فيغترّ به مَنْ هو مِثْلُهُ.

٦٠ ـ دَفْعُ الشُّبُهاتِ(٢):

لا تَجْعَل قَلْبَك كالسِّفِنْجِة تتلقّى ما يَرِدُ عليها، فاجْتَنِبْ إثارةَ الشُّبَهِ وإيرادَها على نفسِك أو غيرِك، فالشُّبَهُ خَطَّافةٌ، والقُلوبُ ضعيفةٌ، وأكثرُ مَنْ يُلقيها حَمَّالةُ الحَطَب ـ المبتدعةُ ـ فَتَوَقَّهُم.

٦١ ـ احْذَرِ اللَّحنَ:

ابْتَعِدْ عن اللَّحَنِ في اللَّفْظ والكَتْبِ، فإنّ عَدَمَ اللَّحْنِ جلالةٌ، وصفاءُ ذوقٍ، ووقوفٌ على مِلَاح المعاني لسلامةِ المباني:

---

(١) «مجمع البلاغة» للراغب.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (ص١٥٣).

فعن عُمَرَ رضي الله عنه أنه قال:

«تَعَلَّموا العربيّةَ؛ فإنّها تزيدُ في المروءةِ»(١).

وقد وَرَدَ عن جماعةٍ من السَّلَف أنهم كانوا يَضْرِبون أولادَهم على اللَّحْنِ(٢).

وأسند الخطيبُ(٣) عن الرَّحْبي قال:

«سمعتُ بعضَ أصحابِنا يقولُ: إذا كَتَب لَحّانٌ، فَكَتَبَ عن اللَّحّانِ لَحانٌ آخر، صارُ الحديثِ بالفارسيةِ»(٣)!

وأنشد المُبَرِّد(٤):

النَّحْـوُ يَبْسُطُ من لسـانِ الأَلْكَنِ
والـمـرءُ تُكْـرِمُـهُ إذا لَمْ يَلْحَـنِ
فَإِذَا أَرَدْتَ مِنَ الْـعُـلوم أَجَـلَّهـا
فَأَجَـلُّهَـا مِنْـهَـا مُقِيمُ الأَلْـسُـنِ(٥)

وعليه؛ فلا تَحْفَل بقولِ القاسم بن مُخَيْمِرة رحمه الله تعالى:

«تعلُّمُ النَّحْوِ: أولُه شغلٌ، وآخرهُ بِغيٌّ».

---

(١) «الجامع» (٢ / ٢٥) للخطيب.

(٢) «الجامع» (٢ / ٢٨، ٢٩).

(٣) «الجامع» (٢ / ٢٨).

(٤) «الجامع» (٢ / ٢٨).

(٥) لبعض العلماء تعقيبٌ على ما أنشده المُبَرِّد من أن أجلَّ العلوم علمُ التوحيد، لكن الجلالة هنا نسبية إلى علوم الآلة. والله أعلم.

ولا بقولِ بِشْرِ الحافي رحمه الله تعالى:

«لَمّا قيلَ له: تعلَّمِ النحوَ قال: أَضِلُّ، قال: قُلْ ضَرَبَ زيدٌ عَمْراً. قال بِشْرٌ: يا أخي! لِمَ ضَرَبَه؟ قال: يا أبا نَصْرٍ! ما ضَرَبه وإنما هذا أصلٌ وُضِعَ. فقال بِشْرٌ: هذا أولُه كَذِبٌ، لا حاجةَ لي فيه».

رواهما الخطيب في «اقتضاء العلم العمل».

٦٢ ـ الإجهاضُ الفِكْري:

احْذَرِ (الإجهاضَ الفكريَّ)؛ بإخراجِ الفكرةِ قبل نُضوجِها.

٦٣ ـ الإسرائيليّاتُ الجديدة(١):

احْـذَر الإسـرائيليّاتِ الجـديدةَ في نَفَثاتِ المستشرقين؛ من يهودٍ ونصارىٰ؛ فهي أشدُّ نكايةً وأعظمُ خَطَراً من الإسرائيليات القديمةِ؛ فإنَّ هذه قد وَضَحَ أمرُها ببيانِ النبيِّ ﷺ الموقفَ منها، وَنشْرِ العُلماءِ القَوْلَ فيها، أما الجـديدةُ المُتَسَـرِّبـة إلى الفِكْـرِ الإسلاميِّ في أعقابِ الثورةِ الحضاريةِ واتِّصال العالَم بعضهِ ببعضٍ، وكَبْح المدِّ الإسلاميِّ؛ فهي شَرٌّ محضٌ، وبلاءٌ مُتَدَفِّقٌ، وقد أَخَذت بعضَ المُسلمين عنها سِنَةٌ، وخَفَضَ الْجَناحَ لها آخرون، فاحْذَر أنْ تَقَعَ فيها. وقىٰ اللهُ المسلمين شَرَّها.

٦٤ ـ احْذَر الْجَدَلَ البِيْزَنْطِيَّ(٢):

أي الجَدَل العقيمَ، أو الضَّئيل، فقد كان الْبيزَنْطِيُّون يتحاورون في

---

(١) «مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها» لِعَلَّال الفاسي (صفحة ب).

(٢) «معجم التراكيب» (ص٢٨٠).

جِنْس الملائكةِ والْعَدُوُّ على أبوابِ بلذتِهم حتى داهَمَهُم.

وهكذا الجدلُ الضئيلُ يَصُدُّ عن السبيلِ.

وهَدْيُ السَّلَفِ: الكفُّ عن كثرةِ الخِصَامِ والْجِدَالِ، وأنَّ التوسُّعَ فيه من قِلَّةِ الْوَرَعِ؛ كما قال الْحَسَنُ إذ سَمِعَ قوماً يتجادلون:

«هؤلاء ملُّوا العِبادةَ، وخَفَّ عليهم القولُ، وقلَّ وَرَعُهم، فتكلَّموا».

رواه أحمد في «الزُّهد»، وأبو نُعَيم في «الحلية»[1].

٦٥ ـ لا طائفيةٌ ولا حِزْبِيَّةٌ يُعْقَدُ الْوَلاَءُ والْبَرَاءُ عليها[2]:

أهلُ الإسلامِ ليس لهم سِمَةٌ سوى الإسلام والسلامُ:

فيا طالبَ العلم! بارك اللهُ فيك وفي عِلْمِك؛ اطْلُبِ العلمَ، واطْلُبِ الْعَمَلَ، وادْعُ إلى اللهِ تعالى على طريقةِ السَّلَفِ.

ولا تَكُن خَرَّاجاً وَلاَّجاً في الجماعاتِ، فَتَخْرُجَ من السَّعَةِ إلى القوالبِ الضَّيِّقَةِ، فالإسلامُ كُلُّه لك جادَّةٌ وَمَنْهجاً، والمسلمون جميعُهم همُ الجماعةُ، وإنَّ يَدَ اللهِ مع الجماعةِ، فلا طائفيةَ ولا حزبيةَ في الإسلام.

وأُعيذُك باللهِ أن تتصدَّع، فتكونَ نهَاباً بين الفِرَقِ والطوائفِ والمذاهبِ الباطلةِ والأحزابِ الغاليةِ، تعقدُ سُلْطانَ الوَلاءِ والبراءِ عليها.

---

(١) وذكره الحافظُ ابنُ رَجَب في «فضل علم السَّلَف على الخَلَف».

(٢) انظر: «فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٣ / ٣٤١ ـ ٣٤٤، ٤١٥ ـ ٤١٦، ٤١٩ فهو مهم و٤ / ٤٦ ـ ١٥٤ مهم أيضاً و١١ / ٥١٢، ٥١٤، ٥١٥ و٣ / ٣٤٢، ٤١٦ ـ ٤٢١ فهرسها و٣٦ / ١٧٩ ـ ١٨٠ و٣٧ / ٢٨).

فَكُن طالبَ علمٍ على الجادّة؛ تقفُو الأَثَر، وَتَتَّبِعُ السُّنَنَ، تدعو إلى اللهِ على بصيرةٍ، عارفاً لأهلِ الْفَضْلِ فَضْلَهم وسَابِقَتَهم.

وإنّ الحزبيّة[1] ذاتَ المساراتِ والقوالبِ المُسْتَحْدَثةِ الّتي لم يَعْهَدْها السلفُ من أعظمِ العوائقِ عن العلمِ، والتفريقِ عن الجماعةِ، فكم أَوْهَنَتْ حَبْلَ الاتحادِ الإسلاميِّ، وغَشِيَت المسلمين بسببها الغواشي.

فاحْذَر رَحِمَكَ اللهُ أحزاباً وطوائفَ طافَ طائفُها، ونَجَمَ بالشَّرِّ ناجمُها، فما هي إلاّ كالميازيبِ؛ تجمعُ الماء كَدَراً، وتُفَرِّقُه هَدَراً؛ إلاّ مَن رَحِمَه ربُّك، فصار على مِثْلِ ما كان عليه النبيُّ ﷺ وأصحابُه رضي الله عنهم.

قال ابنُ الْقَيِّم رحمه اللهُ تعالى عند عَلاَمَةِ أهلِ العبوديةِ[2]:

«العَلاَمةُ الثانية: قولُه: «ولم يُنْسَبوا إلى اسمٍ»؛ أي: لم يَشْتهروا باسمٍ يُعرفون به عند الناسِ من الأسماءِ التي صارت أعلاماً لأهل الطريقِ.

وأيضاً؛ فإنّهم لم يتقيَّدوا بعَمَل واحد يجري عليهم اسْمُهُ، فَيُعْرفَون به دون غيرِه من الأعمال؛ فإنّ هذا آفةٌ في العبوديةِ، وهي عبوديةٌ مُقَيَّدَةٌ.

وأمّا العبوديةُ المُطْلَقةُ؛ فلا يُعرَف صاحبُها باسمٍ معيَّنٍ من معاني أسمائها؛ فإنّه مجيبٌ لداعيها على اختلافِ أنواعِها، فَلَهُ مع كُلِّ أهل عبوديةٍ نصيبٌ يَضْرِبُ مَعَهم بسهمٍ؛ فلا يتقيّد برسمٍ ولا إشارةٍ، ولا اسمٍ ولا

(١) وفي «حُكْم الانتماء» لراقمِه فوائدُ زوائد.

(٢) «مدارج السالكين» (٣ / ١٧٢).

بزيٍّ، ولا طريقٍ وَضْعيٍّ اصـطلاحيٍّ، بل إنْ سُئل عن شيخِه؟ قال: الـرسولُ. وعن طريقِهِ؟ قال: الاتِّباعُ. وعن خِرْقتِهِ؟ قال: لباسُ التقوى. وعن مذهبِهِ؟ قال: تحكيمُ السُّنَّة. وعن مقصدِه ومطلبِهِ؟ قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. وعن رباطِـهِ وعن خانْكاهُ؟ قال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ. يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ والآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾. وعن نَسَبِهِ؟ قال:

أبـي الإسـلامُ لا أَبَ لي سِوَاهُ
إذَا افْـتَـخَـرُوا بقَـيسٍ أو تَمـيمِ

وعن مأكلِهِ ومشربِهِ؟ قال: «مالَكَ ولها؟ مَعَها حِذاؤُها وسِقاؤُها، تَرِدُ الماءَ، وتَرعىٰ الشجرَ، حتى تَلْقَى ربَّها».

وَاحَسْـرَتَـاه تَقَضَّىٰ الْعُمْـرُ وانْصَرَمَتْ
سـاعـاتُـه بين ذُلِّ الْعَجْـزِ والْكَسَـلِ
والْقَـوْمُ قد أَخَـذوا دَرْبَ النجـاةِ وَقَدْ
سارُوا إلى الَمطْلَبِ الأَعْلى على مَهَلِ

ثم قال: «قولُه: «أولئك ذخائرُ اللهِ حيثُ كانوا»؛ ذخائرُ المَلِك: ما يُخَبَّأُ عنده، ويَذْخرهُ لمهماتِه، ولا يبذلُه لكُلِّ أحدٍ؛ وكذلك ذخيرةُ الرجلِ: ما يَذْخَـرُه لحـوائجـه ومهمّـاتِـه. وهؤلاء؛ لمّا كانوا مستورين عن الناسِ بأسبابهم، غَيْرَ مُشارٍ إليهم، ولا مُتَمَيِّزين برسمٍ دونَ الناسِ، ولا مُنْتَسِبينَ إلى اسمِ طريقٍ أو مذهبٍ أو شيخٍ أو زِيٍّ؛ كانوا بمنزلةِ الذخائرِ المخبوءةِ.

وهؤلاء أبعـدُ الخَلْقِ عن الآفاتِ؛ فإنّ الآفاتِ كُلَّها تحتَ الرُّسومِ والتقيُّدِ بها، ولُزوم الطُّرُقِ الاصطلاحيّةِ، والأوضاعِ المُتداوَلَةِ الحادثةِ.

هذه هي التي قَطعت أكثرَ الْخَلْقِ عن اللهِ، وهم لا يَشْعُرون.

والْعَجَبُ أنّ أهلَها هم المعروفون بالطَّلَبِ والإرادةِ، والسَّيْرِ إلى الله، وهم ـ إلّا الواحدَ بعد الواحدِ ـ المَقْطوعون عن اللهِ بتلك الرسومِ والقُيودِ.

وقد سُئل بعضُ الأئمّةِ عن السّنة؟ فقال: ما لا اسم له سوى «السُّنةِ».

يعني: أنّ أهلَ السُّنّةِ ليس لهم اسمٌ يُنْسَبون إليه سواها.

فَمِن الناس من يتقيّد بلباسٍ غيره، أو بالجلوسِ في مكانٍ لا يجلسُ في غيرِه، أو مِشْيةٍ لا يمشي غيرها، أو بِزيٍّ وهيئةٍ لا يخرجُ عنهما، أو عبادةٍ معينةٍ لا يتعبّد بغيرِها وإن كانت أعلى منها، أو شيخٍ معيَّنٍ لا يلتفتُ إلى غيرِه وإن كان أقربَ إلى اللهِ ورسولِهِ منه.

فهؤلاء كُلُّهم مَحْجوبون عن الظَّفَر بالمطلوبِ الأعلى، مَصْدودون عنه، قد قَيَّدَتْهم العوائدُ، والرسومُ، والأوضاعُ، والاصطلاحاتُ عن تجريدِ المتابعةِ، فَأَضْحَوا عنها بمعزِلٍ، ومنزلتُهم منها أبعدُ منزلٍ، فترى أحدَهم يتعبّـد بالـرياضـةِ، والْخَلْوةِ، وتفـريغِ القلبِ، وَيَعُدُّ العلمَ قاطعاً له عن الطريقِ، فإذا ذُكر له الموالاةُ في اللهِ، والمعاداةُ فيه، والأمرُ بالمعروفِ، والنهيُ عن المنكرِ؛ عَدَّ ذلك فُضولاً وشَرّاً، وإذا رَأَوْا بينَهم من يقومُ بذلك؛ أخرجوه من بينِهم، وعَدُّوه غَيْراً عليهم، فهؤلاء أَبعدُ الناسِ عن اللهِ، وإن

كانوا أكْثَرَ إشارةً. واللهُ أعلم»اهـ.

٦٦ ـ نواقِضُ هذه الحِلْية:

يا أخي! ـ وَقَانا اللهُ وإياكَ العَثَراتِ ـ إنْ كُنت قرأت مُثُلاً من «حليةِ طالبِ العلمِ» وآدابـه، وَعَلِمْتَ بعَضاً من نواقِضها؛ فاعْلَم أنَّ مِن أعظم خوارِمِها المفسدةِ لنظامِ عِقْدِها:

١ ـ إفشاءُ السِّرِّ.

٢ ـ ونَقْلُ الكلامِ من قَوْمٍ إلى آخَرين.

٣ ـ والصَّلَفُ واللَّسَانة.

٤ ـ وكَثْرةُ المُزاحِ.

٥ ـ والدُّخولُ في حديثٍ بين اثنينِ.

٦ ـ والحِقْدُ.

٧ ـ والحَسَدُ.

٨ ـ وسوءُ الظَّنِّ.

٩ ـ ومُجالَسةُ المبتدعةِ.

١٠ ـ ونقل الْخُطى إلى المحارمِ.

فاحْـذَر هذه الآثامَ وأخواتِها، واقْصُر خُطاك عن جميع المُحَرَّماتِ والمحارمِ، فإنْ فَعَلت، وإلاّ فاعْلَم أنك رقيقُ الديانةِ، خفيفٌ، لَعَّابٌ، مُغتابٌ، نَمَّام، فأنّى لك أن تكونَ طالبَ علمٍ، يُشار إليك بالْبَنان، مُنَعَّماً بالعلمِ والعملِ.

سدّد اللهُ الخُطىٰ، ومنحَ الجميعَ التقوىٰ وحُسْنَ العاقبةِ في الآخرةِ والأولى.

وصلّى اللهُ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ.

بَكْر بن عبدالله أبو زَيْد

٢٥ / ١٠ / ١٤٠٨هـ

□□□□□

الفِهْرِس

الفصل الثاني: كيفيَّةُ الطَّلب والتلقّي

الفصل الثالث: أدب الطالب مع شيخِه

الفصل الرابع: أدبُ الزَّمالة

الفصل الخامس: أدب الطالب في حياتِه العلمية

الفصل السادس: التحلِّي بالعمل

الفصل السابع : المحاذير

□□□□□